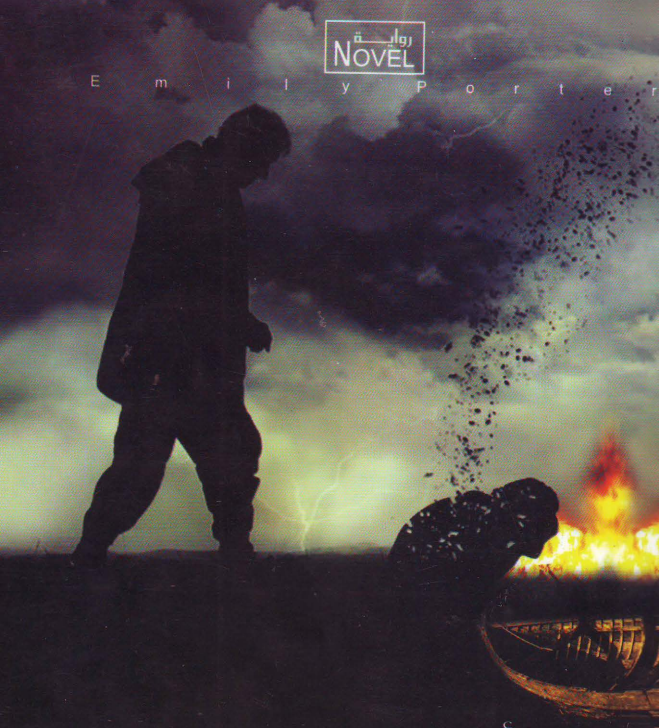

رواية
NOVEL
Emily Porter
أمل بورتر
دعبول
فضاءات

الطبعة الأولى-2009
ر.أ:2009/1/240
المؤلف : أمل بورتر
iSBN978-9957-30-057-9

دار فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885(6- 962+)
هاتف جوال: 0777/911431
ص.ب925846. عمان 11190 الأردن
Dar_fadaat@yahoo.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الوارد في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع

آمل بورتر

دعبول

رواية

ولدت أمل بورتر عام ١٩٣٩ ببغداد. درست الفنون الجميلة بمعهد الفنون الجميلة ببغداد ١٩٦٠، وبموسكو ١٩٦٣ و اختصاص تاريخ الفن، انكلترا ١٩٩٣، فنانة ومؤرخة فنون، نشرت عشرات الدراسات حول الفنون وبشكل خاص عن الفن في العراق القديم.

إلى يوسف جرجيس حمد أعيد لك ما
رويته لي بمتعة وحب

امل بورتر

قصة علي حمد جاووش العبيدي المعروف باسم جرجيس حمد النجار يرويها دعبول البلام، الشخصية البغدادية المعروفة والتي أُشير إليها في بعض المؤلفات.

دعبول

دعبول البلام

جلستُ على حافة النهر الترابية مُمْسكاً بالقنينة بيدٍ ومتكئاً على بضع طابوقات بالأخرى، ساقاي متدليتان وتعبث بأصابع قدمي أمواج دجلة، نظرتُ عبر النهر فشعرتُ وكأنني أملك دجلة كله، كأنّ النهر برمته لي، القمر ساطعٌ ينعكسُ على سطح دجلة الهادي أغلب أوقات السنة عدا فصل نيسان حيث يثور ويغضب، ضحكت من فكرة غضب دجلة هذه وقلت لنفسي يا ليتني كنت مثل دجلة أغضب مرة واحدة في السنة.

رفعتُ القنينة إلى فمي أخذت (مصة) صعدت إلى رأسي بسرعة فائقة لأنني أهملتُ ابتلاع حبات اللبلبي. من بعيد وصلني صوت قارئ مقام، حاولت تتبع مصدر الصوت لابد أنه آتٍ من ذاك (الجرداغ)* المنصوب في وسط دجلة.

الجرداغ كان مضاءً بالمصابيح النفطية التي تناثرتْ أضواؤها بشكل عشوائي غير منظم على صفحة دجلة، انكسار الضوء وانعكاسه الخافت مع صوت قارئ المقام

جعلت نشوة العرق تتضاعف، ترددّتْ نغمـــات جـــوزة ثـــم تـــلَتْها نغمات قانون، قلتُ لا بد أنه جالغي اليهود يـــصاحب القارئ، وتمنيتُ لو كنت هناك ولكن ليس لمثلـــي حـــضور حفلات المقامات الخاصة والمُكَـــلَفـــةَ.

بدون تردد، ركبتُ البلم الذي فرغتُ من عمله هـــذا الصباح، وبخفةٍ وجدتُ نفـــسي أجـــدف صـــوب الجـــرداغ وشعرتُ بنشوةٍ عارمة إذ وجدت في نفسي الشجاعة لاقتحام المجهول.أخذت أجدفُ وأضرب سطح دجلة الفضي بكثيـــر من الرقة والتناغم، جعلتْ حركة المجداف تتناسق مع صوت قاريء المقام وهو يردد نغمات المقـــام، حاولـــتُ بـــصعوبة تذكرماهية هذا المقام، فجأة تذكرتُ علياً وهو يُـــردد أمـــامي أنواع المقامات والنغمات المصاحبة لها ويشرحُ لي أصولها وقواعدها، وخمنت أن القارئ يقرأ من مقام الإبراهيمي نغمة البيات، تركت المجداف داخل البلم، أخذتُ أصـــفقُ لنفـــسي أعجاباً وقلت: يا علي لم يضِعْ جهدك هدراً نعم أنا متأكد من أن نغمة البيات هي ما يردد القارئ.

تركتُ البلم طافياً على السطح الفضي وأنا أتمايلُ بنشوة والقنينة لا تفارقني ثم تحولَ النغم إلى الزهيري، بدأ القـــارئ

يردد... خايب خايب يا ..خيّ... وبقيتُ أردد معه الغناء بصوتي المشروخ أقول خايب وبس ألف خايب إلى أن غلبني النعاس.

لا أدري كم بقيتُ غافياً، ولكن صوت قارئ المقام بدء يردد (يا يمعود عود علينا بالخير) فأفقتُ وعرفت أن عليّ أن أعود بالبلم إلى (الشريعة) حيث سأسلمه غداً إلى الأسطة هوبي.

أفقتُ فجراً على صوت المؤذن يأتي رخيما من الحضرة الكيلانية، نظرت حولي لم أجد أحداً، إذ ما زال الفجر طرياً، وجدتُ نفسي قد تكورتُ ونمت طوال الليل في البلم والقنينة فارغة ومستلقية بجانبي. رفعتها ورميتها في وسط دجلة، فأرتطمتْ بالسطح الهادئ وغاصتْ.

أخذت قليلا من الماء وغسلت وجهي، لحيتي النابتة دغدغت كفي الخشنة وقلت لنفسي سأذهبُ إلى داود المزين اليوم ليحلق ذقني، فما زالتْ سجيتي رائقة بعد سهرةِ أمس المجانية، بالإضافة إلى أنني سأتسلم قيمة أتعابي من عمل البلم، ربما سآخذ بقشيشاً، فأن الأسطى هوبي أحيانا تعتريه نوبات من السخاء غير المتوقع.

مشيتُ حافياً على جرف النهـر، وشـعرتُ بنعومـة ولزوجة الطمي المبلل، حُصَيات صغيرة انزلقت بين أصابع قدمي، تابعتُ سيري متجها ألى الحافة الترابية صاعدا إلـي الأعلى متسلقاً أكياساً رملية وبقايا طـابوق الاسـتحكامات النهرية المتهرئة وغير محكمة لمنع فيضان النهر.

تدحرجتْ تحت قدمي كسرة طابوق تتبعتها بنظري يبدو عليها حُفرٌ لحروف وزخارف نباتية. تابعت سيري، نظـرت إلى نعليّ اللذين أحملهما تحت إبطي، قررت أن انتعلهما، إذ يبدو أن الأرض أخذت تزداد وعُورَة وقذارة وتبدو لي غيـر آمنه للسير حافياً.

تجاوزتُ جامع سيد سلطان علي سائراً نحو الخلانـي، ومن هناك اتجهتُ ألى سوق العوينة لمحل داود الحلاق.

محل داود صغير جداً، عليه يافطة تقول (حلاق زعرتى ختان وحجامة) في الزاوية منضدة صغيرة مُرتبـة عليهـا أدوات الحلاقة، على الحائط معلقة ورقـة مكتـوب عليهـا (البُصاق ممنوع)، فوقها ورقة أخرى مكتوب عليها (الحسود لا يسود – عين الحسود تـُبلى بالعمى).

دخلتُ الدكان قائلاً الله يساعدك داود أفندي! أريدُ أن تحلق لي اليوم، لم يُعَلِّقْ سوى برد التحية قائلا: الله يساعدك عمي، جلستُ على كرسي الحلاقة منتفخا ومالئا الكرسي بجسمي النحيف فهذه فرصة نادرة لأجلسَ على كرسي مُنجد.

فتح داود حنفية الماء فابتسمتُ، قلت له: أصبح لديك ماء جارٍ. لم يُعلقْ سوى بكلمة ... لازم..... غسلَ وجهي ببعض من الماء، وضع البقية على (البريمس) وأخذ يُرتبُ عدته ويَسُنُ من شفرته بعناية وترو. ربما مضيعة للوقت، وانتظاراً حتى يَسخُنَ الماء.

بعد فترة تَحسَسَ بطرف إصبعه حرارة الماء، ثم سكَبَ قليلا في طاسة من الفافون، ووضعَ فيه فرشاة الحلاقة مُمَرراً إياها على قشطة صغيرة من الصابون ثم لطَخ وجهي بالرغوة، كأنما كان يَعمدُ إسكاتي ويُخططُ بمهارة كيف يُغطي وجهي بالصابون منعاً لي من الكلام، ولإبقائي صامتاً .

بَدأ داود بالكلام مُتحدثاً عن آخر الأخبار، صعوداً من غلاء الأسعار نزولاً إلى آخر ما جاء في الجريدة الانتقادية الفكاهية (حَبَزْبُوز) آلتي يُتابِعُها باستمرار، ثمّ قالَ هامساً:

- **عمي سوف يغلقونها قريباً.**

كأنه عليمٌ بالأسرار وخبير صحافي.

وتَـشَعبَ حديثــه ودارَ عن الأيام الخوالي، عندما كانتْ جريدة (كناس الشوراع) جريدته المفضلة، وكيف كان يقرؤها خلسة عندما كان أستاذه الأسطة يغفو عند القيلولة، وكـذلك تـضمـنَتْ أخباره عن عرس قادم وولادة وختـان مـضى وقدوم جيران جدد وأمراض عديدة لمن لا يـؤمنُ بالحجامة.

جلستُ صامتـاً غصبـاً عني، مستمعا جيـدا لأخبـار أعرفُ معظمها، ولكن طريقة حديث الأسطة داود تجعل من الأحاديث التي يُطلقُ عليها (بايته) تبـدو مثيـرة، إذ كـان يقـولِبَها ضِمْـنَ مضمون مختلف، كما ويـربط الأحـداث الواحدة بالأخرى وكأنها فعلا متسلسلة وذات علاقة، في حين أنها من فترات زمنية مختلفة أو حتى عن شخـصيات كـان يبدو لي أن لا علاقة تربط بعضها البعض البتة.

خرَجتُ من تحت يدي الأسطة داود جديداً نظيفـاً بخدودٍ لامعة ووَجهٍ حليق ناعم إلا من بعض آثار (الـشب) التـي مررها على خدوش لابد منها.

اتجهتُ صوبَ الشريعة ماراً عن طريق محلة الحاج فتحي لأقصد (الفناهرة) إذ كان لابد لي من شراء (مكنسة جديدة) لتنظيف الورشة فلم أفعلْ هذا مساء أمس .

قطعتُ الشارع الوسطي للمحلة حيث دكان عبودي أبو الطرشي. نظرتُ إلى الحاويات الزجاجية المُكَدَّس فيها الفلفل والخيار والتفاح والتي-قد تحولت إلى كبيس يفتح الشهية، راقني منظر التفاحات وهي ملتصقة ومضغوطة على الإناء الزجاجي.

ذكرتني بخدود أختي عندما كانت تلصقها بزجاج النافذة الصغيرة الوحيدة والمحصورة في زاوية غرفتنا لترى من في حوش الخان. إذ إن حوش الخان كان لها منطقة عبور فقط من باب الغرفة التي نحتلها إلى باب الخان فقط وفي مناسبات معينة ومحددة.

أخرجت من جيبي (قران) وأشْتَريتُ بعشرة فلوس بضع خيارات مُخَلَلة وبعض فصوص (ثوم عجم)، تابعتُ سيري وأنا أحس بالزهو والانتعاش ورائحة الخل مع البهارات العبقة تنبعث من لفافة الطرشي.

مرَ بالقربِ مني رجل يدفع حماره صائحـاً بالكْ بالـكْ تحاشيته، وبدون أن أعرف وجدتُ نفسي مواجها ذلك البيت بحائطه ذي الطابوق الأصفر المفخور والمبني بكلفة عاليـة وعنايـة فائقـة وبطريقة يُسمّيها أصحاب الـصنعة بـ (جف قيم) وليس (الدرز).

حائط ذلك البيت يُطل على الطريق وواجهة البيت مـن الدربونة، موقع ممتاز جدا، وكان أهل المحلة يطلقون علـى هذا البيت اسم (قصر شعشوع) كنوع من المبالغة نسبة إلـى ذلك القصر المشهور في الأعظمية.

أنا أعرف هذا البيت، قبل أن يـرَمّم، ويـوسّع ليأخـذ شكله الحالي، أعرف بيت حفيظة جيدا شبراً شبراً أعرفه.

كان الباب مواربـاً بستارة عتيقة تغير لونهـا مـن البياض إلى لون أقرب منه إلى لون أرضية الدربونة، بـدَت حفيظة مرتدية فوطة بيضاء، قلتُ لنفسي "حققت حلمـك يـا حفيظة أصبحت حاجّة".

كانت ممسكة بقدر كبير نوعاً ما يبدو ثقيلا على امـرأة ربما في أواخر العقد السابع من عمرها، خرجت حفيظة من الباب ثم نظرت يمينا ويسارا وبسرعة رَمَت ما بالقدر مـن

ماء عَكِر في مجرى المياه في الشارع، هَمَسْتُ لنفسي "يا حفيظة تملكين أموال قارون وترمين الماء في الشارع كي لا تمتلئ بلوعة بيتك لأنك تبخلين كروة (التراح*)". نظرت إلى حفيظة ولم تميزني، فكيف لها أن تميزني بعد ما يزيد على الأربعة عقود؟

وصلت سِكَلّة الخشب حيث الأسطة هوبي ومحل نجارته القريب من الشريعة، سلّمْتُ عليه وقلتُ له: لقد أكملتُ البلم مساء أمس ثم أخرجتُ المكنسة الجديدة من الكيس وبدأت بكنس أرضية الورشة الترابية بهدوء كي لا أثير الغبار، مشى الأسطة هوبي ناحية البلم ونظر إليه بتفحص وإمعان وقال (عفاك)، وعرفت بأنني سأكافأ ببخشيش.

يعود الفضل إلى الأسطة هوبي وإلى علي لتعلمي النجارة، وبالتحديد صنع الأبلام، علي لم يكن نجاراً محترفاً بل هاوياً للنجارة، وكان قد أرسله والده ألى الهند للدراسة فهو كما يطلق عليه (مكتبلي)، أي قد تخرج من مدرسة، ولديه وظيفة جيدة في محطة أم العظام وكذلك في بيت (لنج*).

يهوى علي النجارة وعلى التحديد صنع الأثاث التكميلي مثل زوايا الرفوف والتي كانت مرغوبة جدا لوضعها في غرف الاستقبال، كان علي يحفرها ويزخرفها بأشكال نباتية معقدة ودقيقة تشبه إلى حد بعيد تلك الزخارف التي على جدران المستنصرية.

كان علي هادئاً جداً وصبوراً ومتأنياً قلما يفقد أعصابه ويثور، ويحاول دائما أن يشرح بكل روية ما يستعصي علي فهمه، يقضي وقتا طويلا جالسا هنا على الشريعة وبيده كتاب بحروف لا أعرفها، وعندما أسأله يقول هذا كتاب إنجليزي أو فرنسي أو أوردو.

كانت تلك الكتب تستهويني جدا، إذ فيها صور غريبة لنساء ورجال بأزياء مختلفة، وحواشي الصفحات مُزَوّقَة بورود وأغصان، وأجد علياً أحيانا يسرح بنظره عبر دجلة تاركاً الكتاب مسترخيا بين راحتيه وهو مُستغرق في سرحانه كأنما كان يقرأ صفحات دجلة.

سَمعتُ صوت أسطة هوبي يناديني هرولت إليه، كان خلف الاسكلة واقفاً يتحدث مع زبون شارحا له أنواع الخشب المتوفر لدينا، وسألني إن كان لدينا خشب (الجاوي)

بما يكفي لجهاز عرس، أكدت له أن الخشب متـوفر لـدينا و(الصاج) كذلك وهو أفضل لما لا نسأل رأي الأسطة مهدي وهو الذي عادة يتولى صنع أثاث العرسان.

انشرح صدر الأسطة هوبي لنصيحتي تلـك وهـو يعرف قابلية الاسطة هادئ بالإقناع وفعلا تم إقناع الزبـون باستعمال خشب أغلى وأفضل وقليل الطلب بالنسبة لزبائننا، لذا كانت فكرة تروجيه أفضل من بقائه في الإسكَـلة.

أعطاني الأسطة هوبي أجوري والبقشيش وأغلق بـاب الإسكـلة وذهب، بقيتُ وحدي أخطط لأمسيتي، فكرت فـي الذهاب إلى الحمام أو في السباحة في دجلة، ولكن الأهم علي أن أهيئ تمويني لليلة، واشتري ما أحتاج من(طوبيـا) لـذا سرت باتجاه العبخانة محاولا الوصول إلى المحـلات التـي تبيع العرق.

كان الأسطة هوبي قد سلم البلم إلى المستر جون الـذي يعمل في (بيت اللنج) وجدف المستر جون بالبلم من شريعتنا إلى شريعة بيت اللنج وهو يطلق صفيرا مرحا يـدل علـى ارتياحه، لذا فكرت بإخراج البلم العتيق من المخزن، ربمـا

سأنعم بسهرة مثل سهرة الأمس، ولكن الأمس كان يوم الخميس حيث تعقد السهرات.

اشتريت ما أحتاجه من (اللبلبى) ورغيف خبز وباقة فجل، وقلت مخاطبا باقة الفجل:

– آه كانت لنا أيام يا (جاووش العشاء*).

سحبت البطيخة الحمراء التي كنت قد وضعتها في ماء النهر منتظرا أن تبرد، رتبت قطع الطرشي والفجل في صحن الفافون وخصصتُ كاسة للبلبي، وضعتُ الكأس وبجانبه بطل العرق متصدراً الجميع، وقلت له:

– أنت ملك الجميع لولاك لاحياة لي.

سحبت البلم العتيق قرب الشاطىء منتظراً الشمس أن تغرق في دجلة ليحل الظلام الذي هو ستري وملاذي، أخذت كومة من المسامير المستعملة وسندان مع مطرقة وجلستُ أدق المسامير محاولاً تعديل إعوجاجها، مَضَت علي فترة وأنا منهمكٌ بعملي شاغلٌ نفسي عما يحيطني متعجلاً الظلام لابدأ طقسي اليومي الموعود والذي بانتظاري.

تكومتْ لدي حفنة لا بأس بها من المسامير الصالحة للاستعمال وملأتني الغبطة إذ لم أشعر إلا والظلام قد حل، رفعت كأسي وبدأت أتذوق الطعم المعتاد عليه والذي أشتاق له كل عشية. أكملت عملي في تقويم المسامير العوجاء. صعد العرق إلى حيث يجب أن يصعد بكل يسر وسهولة، عارفاً طريقه إلى روحي وأحاسيسي، وبدأت أدندن لنفسي أنغاما مألوفة، وتذكرت المقام الذي يحبه علي والذي كان أول درس لي في المقام.

يومها جلس علي جلسته المألوفة واضعا كتبه بجانبه وأخذ يردد مقام (الرست)، كان معجباً بمقام الرست لأنه يجب أن يتضمن غناء القصيدة فيه ونهايته يردد يار يار اريار .

كان علي يختار قصائده بعناية فائقة ودائما يستند على أداء رشيد القندرجي. لديه أسطوانات شمعية عديدة للقندرجي عندما كنت أزوره ليلا فقط في بيته في بساتين الزهاوي كان يجلس ويستمع بخشوع رغم أن الأسطوانات لم تكن واضحة والصوت مشوش ومبحوح.

في بيت علي كنا نجلس في باحة الدار الواسعة، حيث الحديقة الوسطية المنظمة والتي تمرح فيها حمامات الزاجل والأبوخشيم والأورفلي، وعلي ينثر الحب لها وهي تتجمع حاطة على أكتافه أو تدور حوله. وباب قفصها الواسع موارب ما أن تشعر تلك الحمامات بالحاجة إلى بيتها وملاذها فإنها تذهب وتجلس في القفص .

كنا أنا وعلي نستمتع بشرب كأسينا، كان يبدو لي أن بيت علي فارغٌ من الناس إلا الخدم الذي يجلبون لنا الطعام ويوفرون لنا الخدمة الممتازة رغم علمي أن لعلي زوجةً وأولاداً ولكنني لم أرهم ولا مرة واحدة كل حياتي.

بدأت ألقم الحمامات حبوبها وقلتُ لعلي:

- أين أولادك؟

قال:

- في الحرم مع أمهم وجدَّهم فما زالوا أطفالا.

تعجبت من ذلك لقد كنت أتصور أن لعلي أولاداً كباراً، ربما لأنه قد وصل سن الشيخوخة.

لم أردْ أن أحشر نفسي في أمور تخصه ولكنني ضحكتُ قائلا:

- هل هم أولاد الزوجة الرابعة، سكت علي وبدت على ملامحه نوع من الصلابة والجدية قائلا:

- أنا لا أوافق على فكرة الزواج من أربع.

قلتُ:

- إنها ليست فكرة بل هي أوامر الله سبحانه وتعالى وقد خص بها الرجال ومذكورة في القران الكريم (مثنى وثلاث ورباع وما ملكت أيمانكم الخ).

لم يرد علي بل بقى ساهما، خيل الى أنه كان يريد أن يقول شيئا ولا أدري ما الذي منعه من الكلام.

علا نباح كلب فأعادني إلى عالمي الحالي، اقترب الكلب منى، رميته بحصوة محاولا إبعاده عن مائدتي رغم أنها ليست شهية على أي حال، ولكن الكلب قرر أن يبقى جالسا بعيدا نسبيا لعل وعسى أن يخطى بلقمة وبقى هازاً ذيله محاولا استعطافي، تجاهلته تماما فكما بدا لي أنه أليف ولن يضايقني.

أخذت المسامير والتي أصبحت شبه مستقيمة وصالحة للاستعمال وأعدتها إلى الصندوق الخشبي الذي نضعها فيه حسب أحجامها وقياساتها. أجلِتُ نظري في ورشة الأسطة هوبي والتي هي ورشتي بشكل من الأشكال، فجزء منها بيتي حيث أنام أيام الشتاء أو أسهر لإنجاز بلم جديد أيام الصيف، شعرت بسعادة تغمرني مصحوبة بالحنين، أحس بنوع من الانتماء الآن بعد كل تلك السنين من التيه.

الشريعة التي أعيش وأعمل بها والتي نسميها (شريعتنا) مزدحمة فعلاً وخاصة خلال النهار فقط، ولكن الشارع العام يبدأ يموج ويروج مساءً بالمارة ولكن مع هذا فبقعتي الهادئة هذه قد تبدو مهجورة معظم الأوقات ليلا، إلا أنها أحيانا تستقبل بعض (السماكة) في طريق عودتهم إلى بيوتهم، أو بعض (البلامة)* ينقلون زبائنهم إلى الضفة الأخرى.

ليس من المستغرب أن يقترب قارب من شريعتنا ويرسو وينزل منه مجموعة من الناس مع سمكة (لسكفها*)، وغالبا ما كنت أُدعى لمشاركة تلك المجموعة وليمتها.

شريعتنا قريبة من الفنادق الراقية والبارات التي يرتادها محبو السهر ومن منطقة المحلات التي تبيع مختلف البضائع،

خاصة الآن بعد أن تغيرت ملامح الشارع العام وأصبح لـــه اسم جديد وثوب جديد.

غريب أن أشعر بهذا الانتماء إلى الرصـــافة وأنـــا أصلاً من الكرخ، الأقدار هي التي هيـــأت لـــي أن أصـــبح رصافياً حقاً، ما زالت ذكريات الكرخ عالقة بذهني، ولكـــن أغلبها ممزوج بمرارة أغص عند تذكرها، أبعدها عن عيني معظم الأوقات ولكن في الليالي الساكنة الهادئة مثل هذه الليلة تعتريني حالة من التذكر.

ما زالت صور ألسنة اللهب التي التهمت الخان الذي كنا نسكنه أنا وأمي وأختي تلوح أمامي ملوحة بألـــسنة لهيبهـــا الطويلة، ما زالت تهزني أصوات وفوضى الهرج والمـــرج والصياح أثناء محاولة إطفاء الحريق الذي امتد الينـــا مـــن مستودع الإنكليز في باب السيف.

لم أكنْ حينها إلا طفلاً صغيرا لا أدري كم كان عمـــري ستة أو سبعة أعوام ربما ثمانية لا أعرف، ولكن رعب تلك الليلة ما زال يطاردني، سمعت خلالها التعليقات الكثيرة حول خطر وجود الإنكليز هنا، وكل الذين كانوا يحاولون إنقاذ ما

يمكن إنقاذه كانوا يشتُمون ويلعنون الإنجليز بسبب هذه المصيبة.

أخذتُ أركض لا أدري لماذا، ربما بعد أن عرفت أن أمي وأختي قد التهمتهما النيران لأنهما كانتا في داخل الغرفة وأنا كنت ألعب قرب شريعة باب السيف مع رفاقي الصبية. كنا في العراء قرب النهر.

عدت إلى الخان لم أجد أحداً أعرفه، أخذت أركض ولا أعرف إلى أين، كل ما أتذكر اسم منطقتنا باب السيف فقط لا أعرف أي شيء عن أصلي وفصلي، أعرف اسم أمي وأختي فقط. بقيت طوال الليل متكوراً في مكان ما وأنا أبكي مبتعداً عن الناس.

لقد كانت أمي تحذرني من (الخناق) و(الكاولية) فتجنبتُ الناس لأكثر من يوم كامل، أخذت أسير بين البساتين محاولاً أن أقتات على المزروعات. لا أدري كيف وصلتُ تلك المنطقة حيث شاهدت جسراً عبرته ووصلت إلى منطقة آهله ومزدحمة، سيارات عسكرية ومدنية وأقوام ووجوه غريبة تماما .بقيت أسير تائها والأقذار تعلوني.

وقفت أمام رجل يبيع مأكولات وينادي (أبيض وبيض*) بقيت أنظر إليه وإلى الطعام على عربته، يبدو أنه عطف علي فناولي قطعة خبز مع كراث وقطعة من الطماطة أكلتها بنهم شديد، أحس الرجل بأنني جائع، سألني عن أهلي وعن اسمي، لم أرد، كنت مرعوبا، ولكنت همست بكلمة باب السيف، لم يفهمني وتصور أنني قلت أبو سيفين، قال:

- انتظري سآخذك إلى أبو سيفين فأنا أسكن هناك. تعجبت لأنه خاطبني بصيغة المؤنث راقت لي هذه الفكرة، نعم سأكون بنتاً لأن (الخناق والكاولية*) لا يهتمون ولا يلاحقون أو يختطفون البنات.

لا أدري من أين جاءتني هذه الفكرة، ربما لأن أمي لم تحذر أختي مطلقاً فتحذيراتها كانت منصبة علي فقط.

جلست قرب عربة الرجل وفكرت بمساعدته أخذت أهش وأكش الذباب عن المأكولات، أعجبته مبادرتي هذه جدا وناولني قطعة طرشي مكأفأة. باع الرجل كل الطعام الذي كان مكوما على العربة وقال (وجهك خير علي) اليوم بعت الأبيض وبيض كله قبل حلول العصر. أخذ يرتب عربته

ويستعد للعودة إلى البيت سرت خلفه ومن يومها أصبحت صبية واسمي بدرية وهو اسم أختي.

قضمت الفجل بتأن وأنا منشرح الخاطر تماماً، إذ إنَّ العرق قد أدى واجبه بكل نشاط وحيوية وإخلاص فلم يخذلني عرق (تقطير الأهلية) أبدا اعادني إلى أبو سيفين حيث أخذني عزوري بائع الأبيض وبيض يومها إلى بيته معتبرني بنتاً.

دخل البيت صائحا(رحلو... رحلو..... **تغيدي لكي خديمي**)، ردت عليه بصوت واضح لا نقاش فيه: **(إذا بأكل بطنا)**، فهمت من لهجتهم الغريبة تلك بأنني سأخدم في هذا البيت وسآكل، وسيكون لي بيتهم مأوئ، وفرحت لأن (الخناق) لن يستطيع إمساكي أبداً لأنني بنت وهذا يعني بقائي داخل البيت دائماً.

نهضتُ مرعوباً من نومي على شيء يلعق قدمي، كان ذلك الكلب الذي حاول استعطافي مساء أمس، وجدت أن الشمس قد علت كبد السماء قلت لنفسي: لابد أن الساعة قد تجاوزت السادسة، لم اسمعْ صوت المؤذن رغم أنني أتذكر مساء أمس الجمعة أصوات التمجيد والتسبيح تأتي من مسجد الكيلاني، واستطعتُ أن أميز صوت نجم الشيخلي قارئ

المقام يؤدي التمجيدات، وتولاني طرب منعش زاد من لـــذة السكر.

لكن اليوم السبت يوم عمل ونشاط وإنتاج. رميت للكلب كسرة خبز بدأ عليه الحبور وأخذ يهز ذيله مقتربا مني، لـــم أشجعه، بدأت أكسر فتافيت الخبز وأطعم الكلب، وبـــدا لـــي وكأنماعلي أمامي يحنو على الكلاب والقطط السائبة ويضع لها الماء.

يوماً ما جاء عليٌّ بحمال يجر خلفه عربة محملة بأكياس مليئة بكسر الخبز رامياً قطع الخبز بنهر دجلة قائلاً: يجـــب أن نطعم السمك، لقد نذرت أن أطعم السمك. أخـــذ الحمـــال يفرغ الأكياس التي تبدو ثقيلة ويضعها قرب الجرف وعلـــي بكل جدية يفرغها ويرميها بعيدا لتبتلعها مياه دجلة.

نظرت أنا بحيرة ودهشة وهمس فـــي أذنـــي الحمـــال قائلاً:(....لقد ولد له ابن ليلة البارحة .... أطلق عليه اســـم (يوسف) وبدأ علي ينادي القطط والكلاب السائبة ويرمي لها ببقايا الطعام ويراقبها بحنو وهي تلتهم وجبتها وتتدافع فيمـــا بينها محاولة أكل أكبر كمية.

أخذت القطط تنهش قطع اللحوم وتركض مسرعة مبتعدة بالأكل لتجد مكاناً آمنا وتنادي قطيطاتها بصوت معلوم لتشاركها الأكل.

بقي عليّ معي طوال اليوم يهيئ قطع الخشب وينشر بعضها ويبرد الأخرى ويقيس ثانية. وعندما كان يريد عمل قطعة فإنه يفضل أن تكون (حل وشد)، كما يقول، ولا يستعمل المسامير إلا نادراً، وأحيانا كان يصنع مسامير خشبية دقيقة جدا ويتطلب منه وقتا طويلا يقضيه على ماكنة (الجراخة) التي يدور دولابها بحركة من القدم.

يبدو لي أن علياً يريد أن يعمل شيئاً ما للمولود. تركتُ علياً منهمكاً بعمله وهو يتمتم نغمات مقام الرست. جلستُ على حصيرة بالقرب منه وأنا بانتظار أن يصل إلى (التسلوم*) لأدخل على المقام ببستة أو بقصيدة حسب مرام علي ربما ذلك سيزيد من انشراحه. وفعلاً بدأنا نغني سوية وعليٌّ يصعد ويهبط بالمقام وأنا أتمايل معه أشاركه الغناء فاليوم الجمعة والشريعة خالية تماماً

دجلة تعبره الدُوب الكبيرة المحملة بالبضاعة وبضعة أبلام مليئة بركابها رجالاً ونساءً وأطفالاً. في هذا اليوم يخرج الناس للنزهة ولزيارة للمراقد أو ربما للأقارب.

أنا وعلي أيام الجمع نتمتع بالنجارة وقراءة المقام. ظهراً طلب علي مني أن اذهب لأشتري لكلانا وجبة الغذاء، وقال لي: ما رأيك بالبسطرمة من محلات الأرمن القريبة من شريعتنا مع البيض وبعض الخبز واللبن والمريس، وكذلك بعض الفستق واللوز من محل الإيراني ومن طوبيا (حليب السباع*).

هيأت وجبة الطعام وترك علي ما كان يعمله وجلسنا نسند ظهرنا على وسائد أخرجتها من غرفتي الملحقة بالسكلة، رتبت صحون الطعام على مائدة منخفضة جدا كان علي قد صنعها لي عندما قررت الأستقرار نهائيا في بيتي الحالي. وأصبحت فرداً مهماً من طاقم وفريق عمل الأسطة هوبي الذي يعتمد بشكل أساسي على الأعمال ألتي يجلبها له علي وخاصة من بيت اللنج أو من محطة نفط أم العظام .

أنهينا وجبتنا وجلس علي بهدوء واسترخاء، يحفر بعصا صغيرة ذرات الأرض الترابية التي افترشتها الحصيرة، وكأنه يرسم أشكالاً وحروفاً، قال:

- أريد أن أُعمر بيت الحيدرخانة وأحول الإسطبل القديم المحلق به إلى بيت جديد، أن الطلب على البيوت كثير جدا هذه الأيام.

تعجبت عندما قرر علي النزوح خارج بغداد والسكن في مزارع الزهاوي. حيث ابتنى بيتا جديدا وعملنا له في ورشتنا هذه أغلب ما احتاجه من الأعمال النجارية لذلك البيت. وأصر على إن يشاركنا بإنجاز الكثير منها.

كان يبدو على علي البشر والفرح. لم أساله عن المولود، شعرت بالحرج فإن ذلك يتطلب ذكر زوجته، ولقد تربيت على تجنب الحديث عن النساء فهذا موضوع حساس وعليَّ الحذر من الخوض فيه.

استمر عليٌّ يدندن بصوت شجي وقال فجاءة:

- أتعرف يا دعبول لقد أسميت الولد يوسف.

قلت له:

- نعم الاسم، نبي الله يوسف، أرجو أن يكون بجماله.

قال:

- لا أسميته نسبة إلى يوسف النجار فأنا أريد أن يطلق عليَّ الناس لقب النجار وابني سيكون اسمه يوسف النجار.

قلت له:

- من هو يوسف النجار؟

ابتسم وقال:

- هل سمعت بمريم العذراء وخطيبها يوسف النجار، الرجل الذي قبل لخطيبته البكر أن تحمل روح الله في أحشائها؟

أخذت أفكر لبرهة ولم أدرِ ماذا أقول. استطرد علي قائلا:

- إنها..... شفيعتي....

قلت له:

- كلنا نحترمها والقرآن أفرد سورة لها....

أطرق برأسه وقال:

- هل تكتم السر؟

- وضعت يدي على رقبتي علامة على أنني أفضل الذبح على البوح بالسر... وحدثني علي...

عاد الكلب مرة ثانية يسألني المزيد من الطعام، صرخت ورميته بحجارة ولعنته لأنه قطع عليَّ أفكاري وذكرياتي.

قررت الذهاب إلى حمام حيدر فهو لا يبعد كثيراً، أخذت معي ملابسي النظيفة، صعدت الثلاث درجات التي تؤدي إلى المدخل، عند المدخل ناولني الرجل منشفة صفراء كبيرة مع قطعة قماش مخططة وملونة (وزرة*). دفعت له أجرة الحمام، قطعت الممر الطويل واصلاً إلى الباحة الكبيرة حيث المغاسل والدكات المبنية من الطابوق وضعت عليها أشيائي وتمددت.

نظرت إلى وسط الباحة حيث المياه الساخنة التي تصل إلى درجة الغليان. حييت الجميع وردوا عليَّ بالتحية سمعت لغطاً وكلاماً كثيرا وضحكات وصوت طرطشة المياه ووقع كفي (المدلك) وهو يدلك زبون، لفنى شعور بالأمان والراحة وغفوت. صحوت على صوت بائع ينادي شاي بالهيل، بالقرنفل، شاي دارسيني، سكنجبيل عسل.

أول مرة أكلت العسل في بيت حفيظة بعد هروبي من بيت عزوري ،عندما قررت رحلو أن تأخذني معها إلى حمام النساء.

كانت رحلو تسخن قدراً من الماء وتغسل شعري يومياً قرب البالوعة في وسط الحوش، إذ لم لكن لديهم حمام في البيت، وتدعني أغسل ساقيَّ وذراعيَّ كل يوم، ويوماً ما عندما أكدت رحلو موعد الذهاب إلى الحمام العام عرفت حينها بأني سأنفضح.

هربت بملابسي النظيفة التي كانت قد أعطتني إياها رحلو. رغم أنها عتيقة مرقعة ويبدو أنها كانت لإحدى بناتها قبل زواجهن، إلا أن البدلة كانت بألوان جميلة وفصال غريب به الكثير من الدانتيلا والكراكيش والجيوب والأشرطة والأزرار وشريط من نفس قماش البدلة ضفرت به شعري.

مشيتُ مسافة طويلة جدا متجهاً عكس اتجاه بيت عزوري باتجاه السوق التي كانت تأخذني إليها رحلو للتسوق معها، وخاصة شراء الدجاج، وكانت تسميه سوق (العوينة).

رائحة السوق تقزز والمياه الراكدة المتعفنة تملأ بقعاً ومساحات كبيرةً جدا، ولا يستطيع الماشي أن يحدد موقعها

قبل أن يصلها، لذا كانت إمكانية الخوض فيها كبيرة جدا، إلا أن رحلو كانت تمسك بيدي وتسحبني بخبرة ودراية لنتجنب تلك البقع الرهيبة، وكانت تحذرني باستمرار: أغلقي عينيك لكي لا يدخل (السيان) كما كانت تسمي تلك المياه الراكدة فيها وألا ستصابين بالعمى...!

كنا نشتري من هذا السوق الدجاج والسمك فقط، ورحلو لا تشتري الدجاج إلا بعد أن تعرضه على رجل ما، يرتدي (زبونا) أصفر و(صايه)، وتناديه معلم، وبعد أن يقرر المعلم أن الدجاجة صالحة للأكل تشتريها رحلو وتنتهي رحلتنا.

سرت باتجاه محلة العوينة متجنباً السوق تماما، فلا خبرة لي بتجنب بقع الماء الراكدة، مشيت على الجادة الرئيسية التي تزخر بالناس من مختلف الأشكال، كنت أقل خوفاً، ربما الفترة التي قضيتها في بيت رحلو أعادت لي الأمان.

وصلت باب الشيخ وبدأت أدخل الدرابين سائراً على غير هدى، وجدت كثيراً من البيوت الكبيرة. المحلة كانت أفضل من محلة رحلو، تجرأت وطرقت أحد الأبواب إذ استهوتني المطرقة المعدنية والتي تشبه الكف المقبوضة.

كانت المطرقة مرتفعة بعض الشيء لذا أخذت أقفز عاليا محاولا الإمساك بها أو رفعها بعيدا عن قاعدتها وتركها تسقط لتصدر صوتاً، بعد عدة محاولات فُتِحَ الباب الذي لم يكن مغلقا أصلا بل مواربا، ورأيت امرأة ملتفة بعباءتها وقد غطت وجهها وتركت عينا واحدة مكشوفة وسألتني ماذا أريد، قلت لها بسرعة: (بأكل بطني ..... خدامه). نظرت إليَّ طويلا تتفحصني بدقة ونظرت إلى الشارع يمينا ويسارا لتتأكد من أنني وحدي، ظلت عيناي معلقة بها تستعطفها وفجاءة قالت:

- ادخلي .

بدأت المرأة تستجوبني ذكرتُ لها كوني يتيمة بسبب حريق باب السيف، وأنني كنتُ أستعطي والناس تكرمت عليَّ بملابسي، وإنني كنت اغتسل بالنهر طوال الوقت ولأبقى نظيفة.

بدا عليها شيء من الاطمئنان، سألتني عن أقاربي أكدت لها ليس لي أقارب أبداً وبين كلمة وأخرى كنت أقسم لها (بالقرآن). بعد استجواب طويل وفحص دقيق قالت: تعالي.

عبرنا الممر وهو مجاز طويل وواسع مبلط بالطـابوق العريض (الفرشي). دخلنا الحوش المبلط (بالكاشي) الأسـود والأبيض على شكل معينات غير متقابلة. وفي وسطه شجرة نبق ونخلة، وتحت النخلة في الظل (حب*) للماء من جهـة اليمين كان هناك سلم يقود إلى الـسطح ومطـبخ وحمـام ومرافق، وفي مواجهتنا ثلاثة أبواب لغرف بها شبابيك جميلة جدا بزجاج ملون

أدخلتني إلى المطبخ الذي كان يبدو لي واسـعا وشـبه فارغ، وقالت لي:

- غرفة المؤونة في السرداب.

مشيرة إلى أحد الأبواب، ثم أكدت لي بأنني سأنام فـي المطبخ كل يوم، عليَّ أن ألم فراشي وأضعه في الـسرداب وأفرشة ليلاً عندما يحين موعد نومي.

حفيظة كانت شابة إذا قارنتها برحلو وجميلة جدا تـشبه أختي بدرية، جدائل شعرها تصل إلى خصرها، طويلة القامة لونها حنطي أقرب إلى البياض منه إلى الاسمرار.

أول مكوثي عندها لم ألاحظ تفاصيل قامتها أو شـكلها، ولكن بعد مرور بعض الوقت بدأت أنتبـه لكـل التفاتـة أو

تصرف يصدرعنها وكذلك بدأت عيني ترى صورتها بشكل أوضح وبتفاصيل أدق.

كان لحفيظة ولد وبنت (حيدر وفاطمة) أعمارهما متقاربة جدا، الولد ما زال يحبو ويحاول الوقوف والمشي والبنت تخطو خطوات واثقة وتتكلم كلاماً غير مفهوم معظم الوقت، ولكن حفيظة كانت تفهمها جيدا.

أمرتني حفيظة أن أراقب البنت والولد وأن ألاعبهما حتى يناما قبيل الظهر وبعد ذلك أساعدها في أعمال البيت مثل رمي الماء في الشارع وملء الحب و(التنك) بالماء بعد غسلها من الداخل وفركها من الخارج بكسرة من الفخار، ثم الصعود إلى السطح وإخراج الأفرشة التي توضع في (البيتونه*)، وتهيئة الأسرة قبيل المغرب ووضع (التنكة) على (التيغة*) ليبرد الماء.

أوضحت لي حفيظة بأن جدول أعمالي يتغير طبقا للحاجة، علي أن أناديها (عمة)، وأن أنادى زوجها الحاج عبد الرزاق (عمي).

ويوماً ما قالت لي حفيظة يجب أن أستعد للبس العباءة ربما السنة القادمة، فإنها قدرت عمري بسبع سنين، وعندما أتجاوز الثامنة حينها عليّ لبس العباءة.

كان الحاج عبد الرزاق يستمع إلى كلامها، واعترض على فتوى لبس العباءة لسن التاسعة وقال: من أين تأتين بالفتاوى يا حفيظة التاسعة ليست سن البلوغ للفتاة ربما بعد الثانية عشر، ودار جدال بينهما لم أفهمه أبدا ولم أفكر به، كل ما يهمني السقف الذي يحميني والأكل الذي يشبعني وعدم فضح سري ولأطول وقت.

مرَّ المدلك بالقرب مني عارضاً علي خدمته، شعرت بحاجة لمن يعيدني إلى واقعي ولو بوقع ضربات أكف قوية صلبة على جسمي واستخدام كيس الحمام الخشن لإزالة الجلد المتيبس من جسدي، وافقت في الحال.

تركت حفيظة تعشش في ذاكرتي وإحساسي وسلمت نفسي إلى المدلك وإلى أجواء الحمام السحري.

للحمامات رائحة غريبة مزيج من البخار والعرق والصابون والماء وقشور البرتقال والرطوبة وعصير الرمان والهيل والملابس القذرة والمغسولة، رائحة لا تدخل عبر

الأنف فقط، بل تتسرب إلى الروح عبر كل مسامات الجسم، وتنفذ من الفم والأذن، حينها كل الحواس تتحول إلى حاسة شم هائلة تتضخم عندها الروائح وتتغلغل إلى أعماق النفس، وتتحول من مجرد رائحة إلى طعم خاص له مذاق يختلف عن كل المذاقات، ويبقى هذا المذاق عالقاً بكل حنايا الجسم بعد الخروج من الحمام ولبضعة أيام.

قبل عودتي إلى (شريعتنا) مررت بحمودي المطيرجي وأشتريت منه زوجين من البلابل كان قد أوصاني بشرائهما الأسطة هوبي، ثم ذهبت إلى سوق العبي لأخذ عباءة كان عليَّ قد أوصى بخياطتها.

تعمدت أن أعود عن طريق المربعة لأمر بدار حفيظة، شجعني عدم تعرفها عليَّ المرة السابقة. لا أعرف لماذا اعترتني هذه الرغبة بالمرور بالقرب من بيتها.

سرت بالقرب من الحائط شبه ملتصق به، كأنما كنت أريد أن احتمي بشيء ما، تذكرت يوم التصقت بحائط الحمام وأنا أرى حفيظة عارية تماما تستحم جالسة على (تختة) خشبية وبيدها طاسة من النحاس تغرف الماء من الطشت الكبير المملوء بالماء وتسكب الماء على جسدها.

وما أن ينسكب الماء على الجسد البض حتى يتحول إلى قطرات تنزلق ببطء شديد كأنها لا تريد مفارقته. ثم تمسك حفيظة بأحد نهديها ترفع هذه الكرة البضة الطرية بتأن وتغطي بالصابون أسفل الثدي، وتزداد الرغوة وتولد فقاعات صغيرة وكبيرة متداخلة مع بعضها البعض، تنعكس عليها ألوان قوس قزحية وتتضاعف كأنما قد مستها قوة سحرية.

أمسكت حفيظة بخصلات شعرها الطويلة المبللة وبدأت تبرمها وتعصرها والماء يتساقط بغزارة من هذه الخصلات الكثيفة ثم نثرتها هازة رأسها يمينا وشمالا كأنما قد مسها جن.

وبدأت قطرات المياه تتناثر حولها وتملأ الحمام، قطرات براقة لامعة كأنها حبات من اللؤلؤ ضاعف من روعتها الرائحة العطرة التي ملأت الحمام بعبير نفاذ لم أعرف مصدره. ثم استدارت ووقفت تاركة شعرها ينسدل مغطيا ظهرها الذي كان مواجهاً لي، وبدت مؤخرتها وساقاها، لم أحس حينها بأنها كانت إنسانة حقيقية حية، شعرت بها وقد تحولت جنية نار وليس من لحم ودم، إلى قطعة لا حياة أو

نبضاً إنسانياً فيها بل، شعلة ولهيب وأنوار وأضواء بلورية لا أعرف مصدرها وكيف ولماذا تشع منها.

استدارت ببطء مبقية شعرها إلى الخلف ثم مدت يدها لتناول المنشفة، صرخت بي قائلة: (**لماذا فمك مفتوح هكذا... يا(زمالة) ناوشيني المنشفة لألف شعري**). صحوت على صوتها، وكفلي تقبضان بقوة على جانبي الفستان الذي أرتديه، ووجدت صعوبة بإرخاء يدي وفك أصابعي وإطلاق قماش الفستان، ولكن حدة صوتها أعادتني إلى صوابي وناولتها المنشفة

بقيت ملتصقاً بالحائط فترة لا أعرف مداها، إلى أن سمعت صوت امرأة بالقرب مني تنظر إلى قفص البلابل، ثم تسألني:

- هل تبيعهما.

أشرت لها بلا، قالت:

- من أين اشتريتهما فإن ابني يريد بلابل؟

قلت لها:

- من سوق الغزل.

شكرتني ومضت.

كنت ألتقط أنفاسي بصعوبة وأنا أتكلم معها، حتى أنها سألتني:

- عمي هل أنت مريض.

قلت لها:

- كلا مجرد كبر سن.

سارت في دربها متجهة حيث أشرت إليها.

أجبرت ساقيَّ على السير حيث (شريعتنا) علّقت قفص البلابل في مكان ظليل أمين بحيث لا تطاله القطط، وضعتُ لهم الماء وفتات الخبز وجلستُ أطرب لتغريدهما، فرشتُ الحصيرة وهيأت مستلزمات الليل وطقوسه المقدسة، علقتُ عباءة عليَّ على مشجب الملابس.

جاء عليّ يقود بنفسه عربته ذات الحصان الواحد والمزوقة بأحسن زينة، سألته:

- أين ستار الحوذي؟

قال:

- تركته مع العربة الأخرى ليعود بالأطفال من بيت خالهم.

على عادته، علي كان وديعاً هادئا يسير بخطوات واثقة شعرت أنه يغرز أقدامه عميقا في (شـريعتنا) رحبـت بـه أعطيته العباءة قرر أن يجربها فوق ملابسه الإفرنجية، وفعلاً بدا وسيما جدا، فعلى غير المعهود كان علـيٌّ أميـل إلـى الشقار، شعره تشوبه حمرة خفيفة، وكذلك شاربه رغم أن هذا ليس بالأمر الغريب جدا إلا أنه نادر بعض الشيء وعنـدما كنا نتطرق لذلك يقول لابد أن أحـد الأجـداد قـد تـزوج (كرجية*).

افترشنا الحصيرة ورتبت المائـدة المنخفـضة، جلـسنا نطرب لسماع تغريد البلابل ولتغريد بعض المغنين كـذلك، علي كان قد جلب معه (الحاكي) وبضع أسطوانات بيضافون للقندرجي وكان فرحا جدا لأنه استطاع الحصول على بعض الأسطوانات لمطربين ومطربات من مصر مثل سيد درويش وسلامة حجازي ومنيرة المهدية، وقال:

- إن إبراهيم (خال أولاد علي) قد وطد علاقته ببعض الوافدين الفلسطينيين من آل المقـدادي وهـم الـذين أعطـوه هـذه الأسطوانات.

على غير عادتنا ابتدأنا طقسنا اليومي باكرا وقبل مغيب الشمس، لم نحسب حساباً للمارة الذين قد يقطعون طريق شريعتنا بالصدفة، أخذنا نرتشف مشروبنا بكثير من التأني والهدوء وكأننا نرتشف إكسير الحياة الأبدية الذي لا نريد له أن ينتهي.

أخذ عليٌّ يدندن مع الأنغام التي يبعثها الحاكي وينقر بأصابعه على حافة المنضدة، والمتعة والحبور ترتسمان على محياه ولا تريدان مفارقة خطوط وجهه التي ترك الزمن آثاره عليه. وبدون مقدمات قال:

- تؤنسني صحبتك يا دعبول، أنت الوحيد الذي لا يعرف معنى الفضول... لم لا تسألني عن سبب استمراري على صحبتك...

قلت له:

- لأن الحياة علمتني الصمت ... كلما أبقيت فمي مطبقا جنبت نفسي المتاعب... أنا أعرف الكثير عنك يا علي ... أعرف منشأك ومكانتك الاجتماعية ولطالما تعجبت لعدم اختلاطك بمن هم من منزلتك، ولكن اختيارك لي كرفيق مائدة شرب يملأني زهوا وكبرياء..!

صمت عليٌّ لبرهة مبتسماً وقال:

- أن يوسف قد أصبح ابن الثلاثة أعوام وأن داود قد توفي بالحصبة وأن حلم (وفية) قد تحقق وأن يوسف سيبقى لي كما في الحلم ...

أبقيت فمي مطبقا واسترسل علي.

وفية شابة صغيرة ورغبتها بالإنجاب كانت محور حياتها، وليلة ما حلمت حلما غريبا إذ امرأة متشحة بلون أزرق سماوي وقفت بباب البيت وطلبت من وفية أن تعد لها القهوة وانصاعت وفية لها وجلبت فنجاناً من القهوة ولكن المرأة طلبت فنجاناً آخر، أخذت المرأة الفنجانين وقالت لوفية:

- خلال عامين سيكون عندك فنجانان من القهوة.

حينها نظرت وفية إلى الفنجانين ووجدتهما قد تحولا إلى إناعين مليئين بالضياء، قالت لها:

- واحد سيكون لك وهو الكبير والآخر لي وهو الصغير... وانتهى الحلم ... أنا متأكد من إن هذه رؤيا وليس مجرد حلم ... إنها نبوءة .... نبوءة مقدسة.

استمعت إليه وعرفت بأن علي لم يكن يحدثني أنا، كان سارحا بنظره يخترق أفق دجلة ... كأنني لم أكن جليسه...

لحظتها علمت بأن علياً قد غمره شعور عميق بالإيمان المطلق غير القابل للاستجواب....الحديث كان موجها له، لم يكن يحدث نفسه بل كان حديث الروح للروح ومناجاة مع النفس.... كان يخاطب نفسه مؤكدا بثقة وثبات أن حلم (وفية) كان حقيقة واقعة ونبوءة صادقة وأن مريم العذراء قد تشخصت أمام وفية.

آثرت أن اصمت... صمتي لم يكن علامة قبول أو رفض.... صمت نواجه به عند النوائب العظام أو في حالات الفرح القصوى وحتى لحظات النشوة العارمة عندما لا يصبح للكلمات معنى وتفقد اللغة وجودها وتتجمد الحروف على الشفاه.... وتبقى النفس أو الروح هي المسيطرة ويفقد الجسد وجوده تماما... فلا عين ترف ولا هدب يرمش أو شفة تنبس، هي حالة من البعد والتنائي عن الواقع المحسوس ولحظة تجلٍّ وتواصل قدسية مع نقطة في الأفق قد تكون في أفق دجلة.!

استمر علي بالحديث ... عند نهر الكانجي جلست أستعرض تلك الألوان البراقة المتضاربة تلف النساء ألوان مسروقة علناً من الطبيعة بكل جرأة ووضوح ... غطاء

رأس يتدلى حول الرقبة ويلف الجسم كله بحركة رشيقة تسمح للناظر أن يطل من خلاله على كل تفاصيل الجسم، تنوره واسعة فضفاضة خضراء أو ربما زرقاء وقد تكون بنفسجية بورود وردية تلف الخصر بشدة، وتنسدل لتسمح لأقدام صغيرة بالحركة والمناورة وبلوزة قصيرة لا تطال الخصر تترك للسرة الحرية الكاملة في البوح عن نفسها.

رجال تلفهم ألوان لا تقل صخبا وإفصاحاً وهرج ومرج.... أبقار وحيوانات وماشية وحمير وقردة وفيل يرش الناس بخرطومه ولا أحد يتذمر أو يتأفف، وأكوام من القاذورات تمنع المرور، وعلب صفيح فارغة أو مليئة، وأكشاك من البواري والورق وبقايا علب اجتمعت كلها لتكون بيوتا دائمة أينما كان.

شمس ذهبية تأسر الجميع وتسحرهم بأشعتها غير المساومة، الكل يبدو عليهم الانسجام التام والذوبان في هذا المنظر العام ولكل واحد موقعه الذي كأنما قد خصص له بقدرة إلهية.

وفي خضم كل هذا اجد امرأة جالسة تمسك بطفل بوضعية تتيح له إفراغ ما في أمعائه الغليظة والغائط يبدو

سائلاً أصفر، وتتقدم منها راهبة بملابسها الزرقاء وغطاء رأس أزرق وأبيض وتمسك بالطفل متيحة لأمه فرصة اللحاق بطفل آخر لها زاغ عن الطريق.

وتستمر الراهبة وتواصل ما كانت تفعل الأم وينتهي الطفل من إفراغ أمعائه فتأخذه الراهبة إلى النهر تنظفه وتخرج منديلها تمسح به مؤخرته ثم تمد يدها ساحبة قطعة من وشاحها لتمزقها بأسنانها وتلف الطفل بها...

كنت شاهدا على هذا المنظر.... هل أقول راعني ... هزني ...أعادني إلى صوابي... جعلني أفكر... وأفكر ووجدت أن الدين الذي يؤمن به أجدادي يسعّر الناس ويضع عليهم علامات ويفرض عليهم سلوكا لا مناص لهم عنه ولكنه لا يثمنهم بسعرهم فقط لا يثمنهم... وهذه الراهبة ثمنت عمل الأم وأعطته قدره واحترمته وأحبته وهذا ما أريد أنا..... ومن يومها تبعت دين تلك الراهبة.

توقف الحاكي وقمت لأديره ليعود الصوت مجلجلا ... نهضت بخطوات ثقيلة متباطئة أمسكت اليد التي يجب أن تدار، نظرت إلى علي، هو الآخر توقف عن الكلام.... أخذت قطعة خبز من السلة وضعت بها بعض الكباب

والكراث وقدمتها لعلي، ابتسم وهز رأسه قائلا ... خبز وملح .. وعشرة طويلة... والخبز والملـــح مـــستمر ... جـــاءت بادرتي عفوية صميمة غير مدروسة أو مخطط لها نبعت من القلب ووصلت إلى قلب علي فتح ذراعيه وفعلت أنـــا نفـــس الشي وضم أحدنا الآخر كان ميثاقا على القبول والصمت!.

جاءت الأصوات من الجرداغ تكسر الصمت الذي أعلناه كلانا نظرعلي إلي طويلا كأنما كان ينتظـــر منـــي البـــوح، ولكنني آثرت الصمت إذ إنَّ الصمت كان مـــلاذاً رحبـــا... فضاء واسعاً أتيه فيه وأعود بواسطته إلى أيامي ألتي شكلتني لأكون بما هو عليه أنا الآن.

(مركب فجل سويت وجروخه شلغم.... آمان.... آمان ..... يابة..... يابة) ضحكت من سخف هذه الأغنية التي انطلقت من فم صبي يدفع عربة محملة بالبضائع المختلفة وأمامه رجـــل يقود حماراً يستحثه للسير مسرعاً ينخسه بسيخ وهو يصرخ (ديخ ..... ديخ.....) والحمار يحاول جهده الإسراع بحملـــه الثقيل رائحة الحمولة نفذت إلى أنفي حادة مقـــززة مقرفـــة، حاولت الابتعاد عن الحمار وصاحبه، أسرعت الخطي، ولكن

الرائحة أعادتني إلى عالمي الذي أحاول سحبه بعيدا إلى عوالم الصمت والنسيان.

صرخت حفيظة بي ... زمالة ... روحي افتحي الباب... هرعت إلى الباب وأذناي تحاولان الإجابة على سؤالين في وقت واحد: سؤال حفيظة عمن يكون بالباب، واستفسار الرجل الذي يقف ببغلته على مدخل البيت فصرخت:

- جاء عمو بعرور

صرخ الرجل بي قائلا:

- بنت الجلب .... شنهو عمو بعرور..... ها...؟ شنهو عمو بعرور... بنت الجلب .... إني السيد جعفر أبو البعرور...!

جاء صوت حفيظة موبخا ومعتذرا

- وخري زمالة..... أحسبها علي سيد جعفر

لم أفهم سبب الغضب والتوبيخ ما الفرق أن يكون عمو أو أبو بعرور دخل الرجل إلى البيت مبقيا بغلته خارجا، وأخذ صبيه ينقل حمله من البعرور والكرب.

ذلك المساء كنا نستعد لنستقبل بعض الزوار ولـــم أكـــن أعرف من هم، وكان علي أن أبقى يقضاً لقضاء ما يحتاجـــه الموقف.

بعد إعداد الطعام استحم الجميع وأنا من ضمنهم، أخـــذنا بالاستعداد لقدوم الزوار، أكد عمي على حفيظـــة ضـــرورة جلوسها مع الزوار رغم رفضها ذلك، وقالت نجلس نحن في الحرم قال لا الجميع يجلسون في الديوه خانة بعد نقاش وأخذ وردٍ سكتت حفيظة...

بعد حلول الظلام بفترة جاء الزوار رجل وامرأة استقبلهم عمي بكثير من الترحاب كانت المرأة ترتدي ملابس تختلف عن ملابس حفيظة وجهها سافر رأسها مغطاة بقماش أبيض وأسود وكانت ترتدي ما يشبه التنورة وشيء مثل الحزام يلف خصرها ... لم أتمالك نفسي أن اسأل حفيظة عمـــا ترتديـــه المرأة، فقالت لي في سوريا هكذا يلبسن النسوة ....ســـوريا .... ما تعني سوريا.... قالت لي حفيظة زمالة سوريا بلـــد بعيد جدا ولكنهم عرب ومسلمون...

كانت المرأة تحمل بيدها حقيبة من القماش ذات مقـــبض خشبي والرجل يحمل كيسا منفوخا لا أدري ما به، ووضـــع

الكيس بالقرب منه وجلس مبتسما يبادل عمي عبارات المجاملة بلغة لم أفهم منها سوى بضع كلمات مثل شكراً وأن شاء الله، ولكنني كنت متأكدا من أنهم يتكلمون العربية ولكنني لم أفهم ماذا يقولون.

نظر عمي طويلا إلى حفيظة ولكنها بقيت ممسكة بالعباءة بيد غير ظاهرة بالمرة مغطية نصف وجهها، واليد الأخرى مختبئة تحت العباءة، وقفت بعيداً عن الجميع وأقرب إليّ منهم. الريبة والحذر والتردد واضح عليها.

بدت حفيظة وكأنها عمود من قار أسود قد تيبس بفعل الزمن. نظر عمي إليها طويلاً محاولاً لفت نظرها إلى أن وقفتها تلك غير مناسبة ولكنها لم تعِ أو تدرك بما كان يشير إليها أن تفعل.

وبمرح وحيوية قال عمي للجميع:

- لنذهب ونرى الحديقة ونخلتنا البرحية.

وتقدم بضع خطوات من حفيظة ووضع يده على كتفها، جفلت لحركته هذه وحنت رأسها مبحلقة بالأرض، لم يرفع عمي يده عن كتف حفيظة بل كان

يوجهها للسير نحو الحديقة وسارت معه مرغمة مبقية رأسها منحنيا وجسمها متصلبا.

في الحديقة دارت الأحاديث عن الحدائق وعن غوطة الشام، وحفيظة مصرة على الصمت المطبق، عاد الجميع إلى غرفة الجلوس، وحفيظة ما زالت متشنجة متوترة واقفة ومطرقة فبادر عمي قائلا:

- هل ستضيفين الزوار ياحفيظة أم تريدينني أن أقوم أنا بهذه المهمة؟

همسا قالت:

- يا عيب العيب....

وسارت إلى المطبخ وأنا أتبعها، وهنا حدث الإرباك التام، إذ عند عودتنا بصحون الطعام لم تستطيع يداي الصغيرتان من حمل ألكثير، وكان لابد لحفيظة من أستخدام يديها، وأوشكت على الوقوع عدة مرات متعثرة وهي تحاول جاهدة إخفاء أكبر جزء ممكن من يديها والسيطرة على العباءة بقماشها الحريري .. ولم تفلح...

وهنا نهض عمي بكل وقار وهدوء وساعد حفيظة على وضع الصحون على المائدة ثم قابلها ومد يده إلى رأسها ممسكا بالعباءة بكل رقة وأناقة رافعا إياها بكثير من الحذر والتأني وكأنه يرفع غطاء عن تمثال ثمين في معرض.

أرتفعت يده بالعباءة عاليا راميا إياها على التخت الخشبي بعيدا عن الجميع وقال بصوت حنون أبوي رقيق وهو يمط كلماته: من اليوم فصاعدا العباءة للشارع فقط.

امتقع وجه حفيظة وبدت شاحبة تماما وجسمها منكمشاً متشنجاً ولمت أكتافها وكورتهما وأحنتهما إلى الأمام ومسكت بطرف فستانها الحريري الأحمر الطويل بأصابع رقيقة نحيفة مرتجفة.

في هذه اللحظة شعرت بأن حفيظة قد فقدت عذريتها.!

جلس الجميع بصمت وسكون وحاولت سكينة تلطيف الأجواء بالحديث عن الأطفال وأمور البيت وسألتها مشيرة إلي:

- ..... هيه الصبية بنتك؟

هزت رأسها حفيظة نفيا معقبة:

- حاشا قدرج خدامة.

وهنا تدخل بدري قائلا لزوجته:

- لم لا تخرجين الدف ياستي.

واستدار إلى الكيس الكبير مخرجا آلة عود كنت قد شاهدت مثله في بيت عزوري.

أخذ بدري يعزف ويغني بصوت عذب رخيم وسكينة ترافقه وتخشخش بالدف متى ما تطلب ذلك، أما حفيظة فبقت مأخوذة بما يدور في بيتها تحاول إضفاء لمحة من الشجاعة على محياها وبدون إرادتها عادت أكتافها إلى وضعها الطبيعي وصبغت حمرة رقيقة خدودها، أما أنا فشعرت وكأنني أحلق بعيدا إلى السماء السابعة.

أستمرت الأغاني لفترة وكنت أردد مع بدري همسا الكلمات التي يغنيها والتي لم أفهم نصفها إلا أنني كنت أتابع اللحن وأنا مسحور تماما بما أسمع وأكرر بيني وبين نفسي النغمات.

غمر الانشراح والحبور الجميع، وارتسمت ابتسامة وأضحة على شفاه حفيظة، واقترح عمي أن يصعد الجميع

إلى الشرفة ليطلوا على نهر دجلة الذي لا يبعد كثيرا ويبدو رائعا في الليل، صعد الجميع وبقيت وحدي في غرفة الجلوس، وبدون ان أعي امتدت يدي لتمسك بالعود وحاولت تقليد جلسة بدري قدر إمكان جسمي النحيل الصغير وبدأت أردد ما كان يغنيه بدري، وارتفع صوتي:

ياطيرة طيري يا حمامة

وانزلي ال دمدمدم والها مامه

جيبيلي من حبي اااامة

ها الأسمر أبو ال ال أأأأأل

كانت الكلمات تعصى علي، ولكن ذلك لم يكن سببا مهما لتوقفي وعدم تتبع أوتار العود وضبط النغمات.

وبعد محاولات لا أعرف كم عددها استجاب العود لي وأخذت الأوتار تتلاعب وفقا لرغباتي، وأصابعي تعبث بها كيفما تشاء صعودا ونزولا، ويبدو أن صوتي انطلق تشجيعا للعود المروض وتضامنا مع أصابعي وأخذت أهز برأسي يمينا وشمالا مقلدا بدري متمنيا لو كان لي يد ثالثة لأمسك بالدف.

غمرني طرب، واعتراني شعور بالغبطة لنجاحي في السيطرة على العود وإطلاق العنان لحنجرتي، واحببت صوتي كثيرا جدا، واعتبرته ذخيرة ومكسباً لم أكن أعرف أنني أمتلكهما.

لم أشعر إلا والجميع وقوفا بالباب ينظرون إلي بوجوه مشدوهة وأفواه فاغرة، وعمي يبدو في منتهى الغيظ والحنق، تسمرت العيون في وبقيت محتضنا العود بقوة محتميا به لا أريد إفلاته. صرخ عمي بي:

- ما تفعلين يا زمالة؟

هنا تدخل بدري معترضا عمي من الدخول إلى الغرفة وقال:

- اتركها يا سيدي اتركها البنت ما عملت شيء.

سألني بدري وهو ينحني عليّ بحنو:

- أين تعلمت العزف؟

قلت بصوت منخفض به مسحة من الفخر... "الآن، هنا".

سكت بدري واستحلف عمي ألا يؤذيني.

في هذه الليلة عرفت بأنني كسرت طوق الطفولة في الليلة التي فقدت فيها حفيظة عذريتها.

سارت الأيام بعد ذلك اليوم المزدحم بالحوادث بطيئة رتيبة أقوم بأعمالي اليومية الاعتيادية بدون تفكير أو عناء أذهبُ صباحا لشراء القيمر، ثم إلى لويزة الخبازة والتي اكترت سليمة لتقوم عوضا عنها بالعمل بعد أن أصبحت قابلة مأذونة في مستشفى المجيدية.

كعادتي دخلت الباب الموارب والستارة المرفوعة دائما حوشا واسعا، حزمات الحطب مبعثرة هنا وهناك، وأكوام من أكياس الطحين الفارغة مرمية: قسم منها معلق على الحبل كستارة، والقسم الآخر مرتب بعناية بعضه فوق الآخر، وسليمة تسجر التنور. بدون أن تنظر إلي قالت:

- الخبز مالاحك هسه.

قلت لها

- أنتظر.

أومأت لي برأسها ومشيرة بيدها أن أجلس على برميل صغير مقلوب أسفله عاليه، وقد وضع فوقه كيس طحين فارغ رتب بشكل يبدو وكأنه وسادة.

جلست ممسكا بصحن فارغ بيدي منتظرا شراء الخبز أولاً، ثم الذهاب إلى (أم القيمر) و(أبوالكاهي) لإكمال مستلزمات الفطور.

بدت سليمة وقد تناثرت عليها ذرات الطحين ونتف العجين وكأنها من عوالم أخرى لا تمت بصلة إلى عالمنا، بقيت أتمعن النظر فيها، بدت لي صغيرة جدا ربما هي من عمر أختي لو كان وبقيت حية. طفرت دمعة من عيني متذكرا أختي، انتبهت سليمة ثم قالت مشيرة إلى إحدى الزوايا البعيدة:

- روحي بعيد عن سخام ودخان التنور أشووكت الله يخلصني من هالشغلة.

أخذت تروح من مكان إلى آخر وكأنها طيف إنسانة محاولة بضجر تهيئة العجين ووضع مخدة التنور في المكان المناسب وجلب بعض الماء الذي ستبلل به أصابعها ليسهل لها عملية الخبز.

عدلت سليمة من فوطهتا وثبتتها جيدا فوق رأسها، الذي بدا لي صغيرا من بين إطار الفوطة الأسود الذي يحدد وجهها بخدود ريانة وفم دقيق ممتلئ، ولكن الجدية والتعب استحوذتا على محياها وبدت لي وكأنها أكبر من عمرها أو ربما كنت أنا الذي أساء تقدير العمر ربما هي أكبر من أختي.

قامة سليمة ممدودة طويلة والملابس السوداء التي ترتديها أضافت على النحافة نحافة وبعضاً من الكبرياء والجدية، دفعت فوطتها عن رقبتها مبعدة إياها إلى الخلف محاولة إدخال أطرافها بفتحة رقبة بدلتها ذات الندف العجينية وذرات الطحين.

لم أستطع أن أبعد عيني عن تلك الرقبة، بدت طويلة ببشرة قمحية أقرب إلى البياض شكل أسطواني ملفوف كامل الاستدارة رشيق بض.

أقتربت سليمة مني، انحنت ومدت يدها لأخذ المكنسة، بدا ساعدها مكملا لتلك الرقبة وكأنه قطعة عجين من طحين حنطة بيضاء شهية. ضوع العجين ممزوجا برائحة عرقها غمرني تماما، لا أدري لم شعرت بشيء من الدوار اللذيذ وتمنيت لو طالت تلك اللحظات، لحظات اقتراب سليمة مني،

فكل شئ هنا كان شهيا ناضجا معدا للأكل مثل أرغفة الخبز التى ستنضج بعد لحظات.

أبتعدت سليمة بالمكنسة وقرفصت ساقيها لأمةً بدلتها الطويلة السوداء تحت ركبتيها وأخذت تكنس الأرض الترابية بكثير من الحذر والتأني، تقدم أقدامها بخطوات واثقة وهي شبه جالسة مستندة بثقلها على ركبتيها.

لا أدري لما أثارت اهتمامي هذه القرفصة فأنا أفعل مثلها كل يوم عندما أكنس بيت حفيظة، ولكن عندما وجدت سليمة بهذه الوضعية بدت لي الحركة صعبة بل مستحيلة، إذ لابد لها من أن تسيطر على جسمها وبدلتها وفوطتها والمكنسة، وتجعلهم كلهم تحت إمرتها، وهذا ما تمكنت منه سليمة تماما، إذ بقيت ساقاها مستورتان تماما وهي تتقدم بتلك الخطوات الواثقة والصعبة.

كان عليٌّ يجلس على عقبيه يقرفص ساقيه ويلويهما بطريقة تبدو لي مستحيله، وجذعه يبقى منتصبا وأكتافه مسترخية تماما وذراعاه مستريحتلين على فخذيه، وساعده يسند كفيه اللذين يأخذان وضعية غريبة بعض الشيء إذ تبدو أصابعه الوسطى والسبابة والإبهام، وقد تجمعت مشكلة مثلث.

كان عليٌّ يفترش الأرض الترابية مبقيا على جلسته تلك لوقت طويل مغمضا عينيه ... ساكنا يبدو عليه الهدوء والإستغراق التام والإنسحاب إلى عوالم بعيدة جدا عن شريعتنا وعن كل ما يحيط به متجاهلا الوجود كله.

لم أفهم لِمَ يجلس علي هذه الجلسه الغريبة ويرفض التحدث أو الحركة. وعندما يخرج من عالمه ذاك يمط جسمه ويشد عضلاته ... ويقول:

- الله أشعر وكأنني قد ولدت من جديد.

حياة عليٍّ تدور في فلك وأضح محدد تغلفه البساطة والبسمة والاطمئنان التام، يذهب إلى مقر عمله كمدير لمحطة نفط أُمّ العظام، ثم ظهرا يعود إلى بيته، وعصرا يأتي هنا بعد أن يكون قد مر على بيت اللنج ويجتمع بمدير أملاكه لوقت قصير جداً، ثم نقضي ساعات من المرح والضحك وهو يمارس هواياته المفضلة النجارة وقراءة المقام والكتب.

أحاديثنا لا تتعدى مجالات الحبور والفرح، لن تصل إلى ما هو خاص أو مقلق، كأس العرق يضفي على جلستنا الكثير من صفاء النفس والانسجام، ويزيد من عدد سمواتنا سماوات لا حصر أو عد لها.

غناء المقام يزيد من الوحدة التى تربطنا، وصوت علي القوي الرخيم يضفي كبرياء وأنفة على كل نغمة وكلمة يحتويها المقام، تتجسد الكلمات التى تلفها الالحان بشكل مختلف وهي كلمات نقولها كل يوم عدة مرات إلا أني لا أجدها نفس الكلمات أبدا.

تخرج هذه الكلمات البسيطة الاعتيادية عندما ينطقها عليّ وهو يغني كبيرةً مهمة ملونة منحوتة حروفها غير الحروف التى اعتدتها، يبدو أنَّ حَنْجرة عليّ تغير من صياغتها تبدو لي كلمة (يا بابا؟ عيني ويامعود) غيرها التى أعرفها العين والباء والياء، تبدو لي وكأنها تحتضن الواحدة الأخرى وتحلق بعيدا أو تتحول إلى حوريات تتلقفها مياه دجلة لتسبح وتغوص في أعماق دجلة وأعماقي.

حتى رأسي الذي أحمله على رقبتي منذ مولدي أشعر وكأنه قد خف ولا أدري إن كان ما يزال موجودا في مكانه أم قد انفصل عن جسدي مخترقا سماوات بغداد الصافية مشاركا رحبتها مع قمرها اللامع الباسم أبداً...هنا تختفي الحقيقة، تذوب وتتلاشى، ويبقى الحلم والخيال.

دخلت الجدة لويزة تحمل بيدها فانوسا مطفيا وضعته في ركن الباحة وقالت بكثير من العصبية والحدة مخاطبة سليمة التي لم تبدأ الخبز بعد:

- من يوم ما أجوكم الخطابة وانت مو تمام..... وين الخبز ليش ما خبزتي..؟

يبدو أن لويزة جاءت متعبة بعد ليلة طويلة قضتها مع امرأة متعسرة الولادة وتوقعت أن تجد خبزها قد بيع كله ...تعاطفت مع سليمة وكرهت لويزة.

بقيت سليمة ساكتة تتم عملها ببطئ وتأني ولويزة تستحثها وتصاعدت من التنور رائحة الخبز اللذيذ، وخرجت الأرغفة الحنطية المحمرة بجوانبها المنتفخة، أخذت سليمة ترميها بشكل دائري وكأن الأرغفة تتراقص بنشوة في الهواء وتسقط جنب التنور على قطعة من البطانية الرمادية الكالحة وبدأت الأرغفة تتجمع وتتكئ الواحدة على الأخرى، دوائر من الألوان الحنطية والبنية مشوبة ببعض الأحمرار الغامق، رائحتها ملأت المكان.

بجهد سيطرت على اللعاب الذي يسيل من فمي مخترقا جانب شفتي، مالئا حلقي كله وأنا أحاول ابتلاعه بصعوبة وكأنني أغص

وأختنق، لاحظت سليمة ذلك وناولتني بقايا رغيف شبه محترق تلقفتــه من يدها الملطخة بالعجين والتي بدت مشوهة غريبــة المنظــر، تلــك الأصابع الرقيقة الدقيقة تحولت إلى أشكال غير منتظمة مليئة بالنتوءات العجينية.

لم أبالِ، وبدأت أمضغ وأكور قطع الخبز في فمي المفتوح، ولــم أسمح لبلعومي بابتلاعها، أردت لشفتي أن تتحسسا طــراوة العجينــة بعمق، ولأسناني أن تنغرز فيها بشدة وتبقى كذلك، وللساني أن يتمتع بها وهو يدور حولها ويلفها ويعيد دفعها من جهة إلى أخرى من فمي، وأنا منهمك في التلذذ بتلك اللقيمات لم أرفع عينيّ عن سليمة التي كانت تنظر إلي بنظرة مستفهمة فضولية غريبة، وشبح ابتسامة ميتة على طــرف شفتيها التي تختبىء خلفهما في حياء أسنان براقة بيضاء.

أبقيت لقيمات الخبز تدور في فمي، ألوكها ببطء وأتمتع بها وهــي تلمس لساني أحيانا وأحيانا سقف حلقي، وأحاول إلا أبتعلهــا، إذ كــان دوران تلك العجينة الغضة منتهى المتعة. متعة مصحوبة بالنظر إلــى فم سليمة، شفتاها مــُكتنزتان، الشفة العليا أكثر بروزاً واكتنــازاً مــن السفلى، ومحددة على شكل قوس وتره إلى الأعلى، وكأن الشفة العليــا من شق واحد لا يفصلهما الأخدود الذي عادة يقسم الشفة العليــا إلــى قسمين....غريب لون شفتي سليمة... أحمر حقا..... ولكنه أحمر مــع شي من اللمعان والبريق مثل حب الرمان.

لا أدري لم استرعت انتباهي شفاه سليمة وأنا أمضغ الخبز، بقيت جالسا مكاني أراقب سليمة وهي توزع أرغفة الخبز على من قد جاء قبلي وحجز حصته.....سألتني إن كنت أريد الخبز بسرعة.....لم أستطع الرد...شعرت بغصة.....لم أرد عليها سوى بهزة من رأسي علامة النفي..رغبة عارمة تعتريني.... أريد أن أبقى سابحا في قسمات وجه سليمة ولقمة الخبز في فمي. سألتني:

- كم رغيفا تريد؟

نظرت إلى كفي وبدأت أعد على أصابعي رفعت كفي بأصابعي العشرة مشيرا لها بانني أريد عشرة أرغفة هزت رأسها هزأ مني.

لو كنت أعرف العد لأستطعت معرفة عدد الأيام التي قد مضت عليَّ وأنا أرى سليمة وأشتري الخبز منها .... كنت أحاول تذكر كم رمضان مضى عليّ، فأول رمضان لم تصم فيه حفيظة في الأسبوع الأول، وثاني رمضان قرر عمي أن يسافر في منتصفه وبقينا وحدنا إلى أن رجع قبل العيد بأيام وهو محمل بكل شيء من ملابس ورز ودبس ودهن حر وكان متباهيا بما قد جلب، ولا أتذكر عن ثالث رمضان أي شيء... وفي رمضان

آخر أصيبت فاطمة بالحصبة ولا أدري أكان أول رمضان أم لا ... ومضى رمضان يعقبه آخر متسللا من بين أصابعي، وضاعت عليَّ الأعداد ... مثلما كنت في الليالي الصيفية أنظر إلى النجوم أحيانا أجد فيها وجهاً يشبه سليمة وأحيانا أخرى أحاول أن أعدها مستعينا بأصابعي، وأغلب الأحيان أفقد تسلسل الأعداد التي تزيد عن أصابع يدي وقدمي وأحاول مجددا وأفقد التسلسل وأغفو لأصحو قبل بزوغ الفجر وأنسى النجوم لأنني سارى سليمة أمامي خلف التتورومن بين الدخان وليس بين النجوم..

عدت إلى البيت، وضعت الخبز والقيمر والكاهي على منضدة واطئة، ورتبت الحصران المحيطة بتلك المائدة ثم نفضتُ مخدات الريش والمتكآت بانتظار أن يصحو الجميع، أوقدت البريمس ووضعت عليه إناء الماء ليغلي استعدادا لتهيئة الشاي ... جاءت حفيظة وهي تتثائب وقد حلت ضفائرها، شعرها الكستنائي منثور تشع منه الألوان الحمراء، إذ قد أنعكست عليه أشعة الشمس وعلا وهج ألوان الحناء القرمزية والبنية وكأنها هالة قدسية تحيط رأس حفيظة.

جاء علي بكتاب به الكثير من الصور الجميلة لنساء ورجال تحيط بروؤسهم هالات وجوه تبدو عليها أمارات القدسية والسمو،

وجلس يقرأ بهدوء ولم تبدو عليه الرغبة للقيام بأي عمل آخر غير القراءة، ولو أنني كنت أتوقع اليوم أن يكمل قطعة أثاث جميلة كان قد ابتدأ بها. أكملت بعض الأعمال التي كان قد كلفني بها الأسطة هوبي وأخذت بالأستعداد لممارسة طقسنا اليومي المعهود قطعت الخيار والطماطة ووضعت بعض اللبن في كاسات.

عليٌّ كان قد جلب الفواكه والخضار والكثير من النعناع والبقدونس والكباب وكبة حلب بدأت بقلي شرائح البانجان وأخذت أدندن بنغمات البيات وأردد بعض البستات.

نظر علي إليَّ وقال:

- أخرج العود يا دعبول، دعنا نسمع موسيقى حقيقية لا أريد أن أستمع إلى الأسطوانات اليوم.

قالها بصوت مبحوح بعض الشيء، لا يبدو عليه الانشراح المعهود، أخرجتُ العود من كيس القماش المورد الذي كانت قد خاطته لي سكينة من فضلة قماش كانت قد اشترتها عندما جددت ستائر بيتها.

كانت أمسية ربيعية رائقة ونيسان تتفتح فيه سماء بغداد عن أمطار غير متوقعة وقتا وقوة، في تلك الأمسية هدأت الأمطار

وراق الجو واعتدل، وبدت الريح تعبق بـــروائح القـــداح التـــي أسقطتها الأمطار عن أشجار الرارنج والبرتقال.

بدت سكينة صافية النفس حبورة وهي تنتهي من خياطة آخر ستارة، ثم قالت:

- سأخيط لك كيسا للعود يا دعبول، قم اجلب العود لأعرف المقاس.

لم تسعني الفرحة فإن عودي الثمين العزيز سيكون لـــه ملبسٌ لأول مرة من قماش بألوان زاهية جميلة وورود وأزهـــار تبدو وكانها حقيقية تكاد تخرج عن قطعة القماش لتكون حديقـــة نظرة، جلستُ أُراقب سكينة وهي تديربيدها اليمين عجلة ماكنـــة خياطة السنجر السوداء والرسوم الصفراء والذهبية التي عليهـــا بمهارة وباليد الأخرى تدفع القماش الزاهي لتدوسه أسنان الماكنة وتتغرز به الإبرة، والقماش طوع أمرها يتشكل يـــدور، يعلـــو، ويهبط حسبما تريد، وأنا مبهور تماما، وقد تهدل فكّي من العجب، وبعد دقائق ناولتني الكيس وقالت ها هو ضع العود فيه.

بعد الفطور مباشرة قالت حفيظة: وما زالت الهالة الحمـــراء تحيط برأسها من فعل توهج الحناء تحت شمس ذلك الضحى.

- سأذهب اليوم للزيارة للكاظم وأنت يا بدرية تبقين في البيت مـــع حيدر وفاطمة.

لم أردّ عليها، فعليَّ قبول الأوامر بصمت ... واستطردت:

- لن نعود قبل المغرب سنتأخر إلى العشا ... أطعمي الأطفال، وبعد قيلولة الظهيرة في العصاري أدخليهم الحمام ليستحما وأبقَيْ معهما في الحمام.

وأفهمتني بالتفاصيل كيف أحممهما وألبسهما ملابس نظيفة، وبعد العشاء أصعد بهما إلى السطح للنوم. كنتُ أتطلع ألى البقاء وحدي في البيت واللعب مع حيدر وفاطمة أو أغيظهما بالطريقة التي تسليني.

لا أعباء ولا تنفيذ طلبات حفيظة التي لا تنتهي إلى الساعة التي اضع رأسي فيها على الوسادة، كما ولن افتح الباب أبدا لا لسقاء الماء أو لبائع الفجل أو لأي طارق آخر.

كل الجارات قد ذهبن مع حفيظة فلن تثقل عليَّ أي واحدة منهنَّ بطلب قليل من الملح أو بعض السكر فسأستلقي طوال النهار في الحوش قرب البرحية وألعب مع الأطفال كل الألعاب التي اشتاق لها والتي قد حرمت منها طوال السنوات التي قضيتها في بيت حفيظة، وعندما ينام الأطفال في الظهيرة سوف أتسلق النافذة وأجلس على حافتها أُراقب من يمر في الزقاق الضيق...لقد

خططت ليومي بشكل جيد وسأستمتع بكل لحظة منـــه... هـــذه الفرصة النادرة من الحرية والمتعة ربما لن تعاد أبدا.

سار أغلب اليوم بالشكل الذي توقعته، وأســـتمتعت باللعـــب وكانت فاطمة مشاكسة أغلب الأوقات وتزعل بـــسرعة وعلـــيَّ إرضاؤها بتمرة من البرحية أو باقتراح لعبة جديدة إلا أنها كانت تفتقد أمها وتسأل باستمرار عن موعد عودتها، وتسحبني من ذيل فستاني الطويل وتجرني إلى الباب تريد مني أن أخرج بها إلـــى الزقاق، تحاول ابتزازي بأي طريقة لتنفيذ رغباتها، أما حيدر فكان طفلاً هادئاً منهمكاً بنبش التراب في الحديقة ومتظاهرا بأنه فلاح، ويحاول أن يزرع أو أحيانا يقلد بائع الفجل بوضع سلة على رأسه مناديا على بضاعته.

فاطمة كانت تضحك منه باستمرار وتحاول أن تسيطر عليه وتفرض عليه أن يسمع كلامها ويطيعها، إذ هي الآن ربة البيت، إذ وجدت شريطا علقت به بعض المفاتيح وربطتها في فتحة جيب في فستانها مقلدة أمها، وكانت تقول: "كل مفاتيح البيت معي هـــذا مفتاح باب السرداب، وهذا مفتاح غرفة المؤونـــة، وهـــذا بـــاب السطح" وتسير بخيلاء مرتدية قبقاب أمها محاولة تقليد حركـــات حفيظة.

ولم أُرِدْ أن تفسد فاطمة علينا يومنا المخصص للعب، وكنت أعرف أنها تهوى لعبة... جدة جدة وأنا أيضا. ففي نهاية هذه اللعبة أستطيع أن أشتم من أشاء ... وكانت لعبة جدة جدة هي محـــور يومنا كلما ابتدأت فاطمة بالتحجج أو الزعل اقترح أن نلعب جدة جدة، وأغلب الأوقات أقوم أنا بدور الجدة العمياء المغمضة العينين وتبدأ اللعبة -:

- الأطفال: جدة جدة
- الجدة: ها عيني جدة
- الأطفال: ايش ضايع لج
- الجدة: أبرة وخيط
- الأطفال: وايش تخيطين
- الجدة: ثوب السلطان
- الأطفال : واش جاب لج
- الجدة: خوخ ورمان
- الأطفال: ما ضميتي *النا
- الجدة: بلي
- الأطفال: وين
- الجدة: فوق الدولاب
- الأطفال: (وهم يبحثون) ماكو
- الجدة: جوه الكرسي

- الأطفال: وهم يبحثون) ماكو

ويستمر استعراض(الأمكنة التي من الممكن أن تكون مخبـــأ الخوخ والرمان)

- الأطفال: عندج بنية
- الجدة: بلي
- الأطفال: اش اسمها
- الجدة: تختار اسم ...
- الأطفال: ميتة لو طيبة
- الجدة: ميته
- الأطفال: خرة بروح ...

وينزل الأطفال اللعنات والشتائم على روح ابنة الجدة الميتة والجدة تحاول الإمساك بهم ومعرفة مكانهم وهي معصوبة العينين، كنت دائما العب دور الجدة ودوما اختار "حفيظة" اسما لابنتـــي المتوفاة.

نام الأطفال حيدر تكور ونام على الأرض بالقرب من الحديقة وفاطمة تسلقت التخت الخشبي وأخذت تعبث بالمفاتيح وغلبها النعاس.

بقيت أنا جالسا بصعوبة على حافة الشباك ساحبا الستارة قليلا ألى الجانب أراقب المارة معلالا نفسي أن أرى سليمة تعود إلى بيت لويزة لتهيئ خبز وجبة المغرب وغفوت.

بيت سكينة كان الملاذ الوحيد الذي لي بعد حادثة زيارة الكاظم، بدري وسكينة قبلاني بكل ترحيب ومودة وتفهما مشكلتي وعاملاني وفق سني، ولم يحملا الأمر أكثر من قابليته، وقالا لحفيظة التي طلبت منهما طردي(حرام عليك ياستي خلي الصبي بحالو، هوي ما عمل شيء هاي كلياتا شغلة ولدني) من يومها قررت حفيظة مقاطعتهما تماما.

سرت بالعود حيث يجلس عليّ وبدأت أصابعي تدور بغير وعي مني وكأن العود مسحور هو الذي يتلاعب بأصابعي وأوتاره قد مسها الجن تجنب أناملي إليها صعودا ونزولا وتضغط حيثما تريد تلك الأوتار أن يضغط عليها وترخي نفسها بين أصابعي حينما تشاء ذلك، وأنا مسلوب الإرادة طوع أمرها، تارة

تصدر أنغاما خافتة هادئة، وتارة أخرى ملتهبة مشتعلة بالوجدان والحنين والأنين.

كان عليٌّ يُميل رأسه شمالا ويمنيا ويبدو عليه الانسجام التام مع الألحان لتى تطلقها أناملي الشاردة، وتتلقف أذنا عليٍّ كل نغمة، وتتفاعل معها أحاسيسه ومشاعره، ويزداد ترنحه واهتزازه، لا أدري كم استغرقت تلك المناجاة الوجدانية بيني وبين أوتار العود ولم أعرف متى أنتهت حالة التصوف الروحي تلك، إلا أنني سمعتُ علياً يقول:

- كيف يريدوننا أن نمتنع عن هذا السمو؟! يريدوننا أن نكون أحجاراً قاسية لا تدرك ولا تعي ولا تحس ولا تفكر؟! اليوم ضربوا يوسف الصغير ضربا مبرحا في الكاظم لأنهم تصوروه مسيحيا لشقار شعره وبياض بشرته وللبنطلون القصير الذي يرتديه هذا الطفل ابن الخامسه.

أخذ علي يسير على جرف دجلة وأنا بجانبه، أحاول جهدي أن أخفف عنه، كان الألم يعتصره وهو يسرد لي ما حدث للصغير يوسف الذي بقي يبكي لساعات من الألم والخوف والرعب وهو يرد عنه تلك الأيادي التي تبدو كمخالب الذئاب وهي تخرج من بين ذلك اللباس الأسود وتحاول أن تنهشه، إذ ترتفع في الهواء وتهبط بكل ثقلها على وجهه الصغير الممتلئ الأشقر وصراخ

وفية وعويلها عندما وجدته بين أيدى أولئك الرجـــال بملابـــسهم السوداء ولحاهم الشعثه وأصواتهم الحادة وانقـــضاضهم عليـــه، دفعتهم وفية بقوة وإصرار محاولة إنقاذ ابنها وهي التي سهت عنه للحظة.

لم أجد الكلمات التي ستزيح الهم عن قلب علي الموجع، بقيت صامتا، الصمت ملاذي في الأفراح والأتراح ســوية، ولكننـــى وضعت يدي على كتفه العريض، بدت أصابعي نحيلـــة جـــدا، وحاولت أن أضغط على كتفيه لأعيده إلى دنياي أنا.

عدنا من سيرنا على الشاطىء وجلست ممسكا بالعود مـــرة أخرى وانطلقت حنجرتانا بغناء مقام وبعض البستات، وحانـــت اللحظة المناسبه لجلب قنينة العرق وانتشينا.

صحوت من غفوتي ونصف جسمي متدلٍ من حافة الـــشباك على صوت حيدر يبكي، قفزت من الشباك راكضا نحو حيـــدر، وجدته قد بلل نفسه، نزعت عنه ملابسه المبللة، أمـــسكت بيـــده متجها به نحو الحمام وإذا بصوت فاطمة تقول أنا أيضاً أريد أبول وقررت أن أخذ الطفلين سوية.

هيأت لهما الملابس النظيفة وليفة الحمام والمناشف.. دخلنـــا ثلاثتنا الحمام وروح المرح تسبقنا فالماء دائما مجال لعب وتسلية

لنا...إلا أنني لم يسبق لي أن دخلت الحمام معهما أبدا...أجلست حيدر بالقرب من الطشت وأعطيته (الطاسة)، بينما أنا أحمم فاطمة.....وتبللت ملابسي بفعل رشات الماء من قبل حيدر وفاطمة والتصق ثوبي بجسمي وغفلت عنه تماما اذ كنت منغمرا بواجبي أؤديه على أدق صورة وبنفس الوقت منتعشا بلعب حيدر وهو يرشني بالماء وفجاءة صرخت فاطمة مشيرة إلى وسط جسمي:

- هاذا شنو بدرية .... عندج بلبول مثل حيدر.

وأخذت تضحك وتصفق وتقول بدرية أم البلبول... بدرية أم البلبول .... وتبعها حيدر محاولا الإمساك بي من وسطي وسحب أعضائي وهو منفعل وفي غاية الفرح ويقول "**بدرية مثلي عندها بلبول**"...أدركت أن الموقف قد خرج عن سيطرتي ... لم أدري كيف أداري الموقف وألغي كل ما حدث...عللت نفسي بأني أستطيع رشوتهما بلعبة جدة جدة أو بقطعة حلوى وسيكتمان الأمر.

أشرقت شمس يوم جديد عليّ في بيت منحني الدفء والأمان استيقظت ووجدت نفسي متكورا على تخت في وسط

الحوش وشرشف أبيض مطرز بألوان جميلة يغطي جسمي كله، سمعت صوت سكينة تقول لي:

- بماذا أناديك يا صبي؟ ما أسمك الحقيقي؟ هل تعرف.

تمتمت بهمس وبصوت يصعب سماعه، قلت:

- دعبول

- -.....يوه ..... شو هاي الاسم

لم أستطع أجابتها إذ لم أعرف لماذا اسمي دعبول.

جلست سكينة على حافة التخت الخشبي وأضعة يدها على رأسي وهي تسحب خصلات شعري الطويل بيدها بنعومة فائقة قائلة:

- شو بدنا بهي الشعرات..... ما منن نفع بعد مش هيك؟

- أي .....قلت لها.

نهضت بتأن وأخرجت مقصاً فضي اللون من صندوق تحت ماكنة الخياطة، وقالت:

- هيدا علامة سنجر وهوي جديد ما دشنته لهلق بدنا نقص لك شعراتك بيه شو قولك؟

أطرقت برأسي صامتا ، فقالت لي:

- سأقص شعرك لأنك صبي وكبير وبعد فترة قصيرة ستبلغ مبلغ الرجال وصوتك سوف يخشن وتظهر شعرات في أماكن من جسمك هل تعرف ذلك؟

أشرت برأسي علامة النفي ثم واصلت سكينة قائلة:

- بدا تنبت لك شنبات وشوية لحيه في وشك...

أطرقت محنيا نصف جسمي ألى الأمام محاولا إخفاء وجهي، مدت سكينه يدها ممسكة برأسي وهي ترفعه وقالت:

- بدك تعرف هلق شو بدو بصير بجسمك خيو .. وكمان هلق بدا تنبت لك شعرات من المكان إلي مسكتو فاطمة وحيدر وهيدا المكان بدو شكله وطوله يتغير .... فهمت عليّ شيء متل الكورتين الصغار بدّوون يتزلوا هونيك، لو مسكت المكان فيك تحس بيون ....هلق ما تخاف....هيك خلقنا... ربنا.... كل زلمة عندو كورتين صغار...يه.... شو باك ... هني اللي بيعملو الشغل... فهمت عليّه.

شعرت وأن الدموع ستطفر من عيني وغصة خنقت بلعومي وبصوت مبحوح قلت:

- أريد أبقى مثل ما آني ليش أتغير؟

- -لأنو بدك تصير زلمة مش حاتضلك صبي صغير ازعـــر كـــل شوية تبكي بدك تصير مثل بدري جوزيّ زلمة قبضاي مش هيك فهمت عليّه؟

لم أحاول يوما أن افهم وأستفسر بل كنت قد تعـــودت أن أقبل كل شئ، وعرفت أن هذه التغيرات مفروضة عليّ أيضاً لا إرادة لي فيها. مسكت سكينة بمقص السنجر اللامع الجديد وبدأت خصلات الشعر البنية الغامغة تتناثر علـــى أرضـــية الطابوق الفرشي الأصفر المجلي بعناية.

أخذ بدري يقضي وقتا أطول معي لتعليمي العود وبيـــت سكينة وبدري لم تنقطع فيه سهرات الطرب وأماسي الأنس، وشجعني بدري لأتعلم المقام بالأضافة للقدود الحلبيـــة كمـــا وكانت سكينة تعلمني تحضير الأكلات الشامية وتدربني على استعمال ماكنة الخياطة وتعلمت منها مهارات عديدة وأسلوب تعامل مختلف جدًا.

يوما ما قرر بدري أن يقيم مشروعا آخر إضافة لصالون الحلاقة الذي يملكه قرب بيت اللنج، وهو تأســيس ورشـــة صغيرة لصناعة آلة العود وأخذ يدربني عليهـــا معتقـــدا أن

للمشروع هذا مستقبلا مثلما في حلب، وكان يبني آمالا كبيرة على نجاح هذه المشروع.

بعد فترة القيلولة وإنهاء أعمالي المنزلية أذهب مع بدري لانجز أعمال الورشة التي أقامها خلف صالون الحلاقة والذي يطل من الخلف على ساحة وأسعة كما وتطل عليهـــا نوافـــذ والمدخل الخلفي لشركة بيت اللنج.

أخذت هذه الورشة بمرور الأيام طابعا آخر إذ أصبحت ملتقىً لأصدقاء بدري الوافدين من سوريا ولبنان وفلسطين، واسترعت انتباه موظفي بيت اللنج.

كنت أنا أغلب الأوقات نجم تلك اللِقاءات عندما أعـــزف أو أصلح عودا لزبون أو منهمكا بمشروع صنع عود آخـــر حجمي وسني الصغير وتفاني وصمتى الدائم وقلة فـــضولي بالإضافة إلى صوتي وعزفي الجيد على العود كانت مثـــار دهشة وإعجاب شلة بدري ومن ضمنها علي.

لا أتذكر المرة الأولى التي تعرفت فيها على عليّ رغـــم أنني أتذكر كثيراً من الحوادث التي مرت بي إلـــى أنَّ عليـــاً تسلل إلى حياتي بهدوء وبطء لم أشعر بـــه إلا وهـــو معـــي دائما.

أتذكر عندما أخذني معه ألى إلاسكلة وتوسطه لدى الأسطة هوبي وإقناعه بأنني أفضل عامل وسأكون أحسن بلام لأنني أعرف كيف أصنع العود ونظرات أسطة هوبي المتشككة كأنه يقول وما علاقة العود بالبلم..... علي بأسلوبه الهادي ووجهه الصبوح والبشوش كان يستطيع إقناع أصعب الرجال.

علي كان يعرف مدى الألم الذي سيسببه لي رحيل سكينة وبدري وقرب عودتهما إلى الشام، بدونهما كنت سأضيع تماما لم أقل لعلي كيف ولماذا رعياني بدري وسكينة، هذه الحادثة كنت دائما أزيحها عن بالي وفكري، لا أريد استرجاعها أبدا، كنت دائما أطويها أخبئها في دروب النسيان الكثيرة التي تختفي خلف ذاكرتي .

دروب مهجورة منسية تماما. دروب ضيقة مثل الزقاق الذي نشأت فيه، بيوت بجدران عالية تحمي ساكنيها من الفضول والحسد وأبواب بمسامير معدنية ومطرقة باب من النحاس على شكل يد مقبوضة تتكرر هذه المطرقة على كل الأبواب تقريبا.

يوم ما طرقتها باستعطاف وكانت على بـــاب حفيظـــة، وكنت أبحث عن بيت آمن يحميني، ويومـــا آخـــر طرقتهـــا برعب وبشدة وهي على باب بيت سكينة باحثا عن مكان آمن يحميني من حفيظة.

كنت أسمع صدى طرقات المطرقة وكأن المطرقـــة تردد معي خالة سكينة افتحي الباب، وحفيظة تركض خلفـــي محاولة الإمساك بي وتسب وتلعن وتقول لي

- ابن القحبة ...قواد ابن ... قواد .. يا فاسد يا فاسق. أنت ولد وتدعي أنك بنت وتخدعني كل هذه الفترة وأنا مفرعة وســـافرة أمامك يا عديم الحياء يا ديوث (ديوس)....يا نغل هذا جزاء من يرعى النغول والقوادين...يا ابن الـــ....

صوت صراخها لمّ الجيران كلهم إلا أنهم أغلقوا أبوابهم بعد فترة إذ عرفوا أن الموضـــوع بـــين خادمـــة وصـــاحبة البيت...إذ لا بد أن الخادمة قد طمعت في لقمـــة زائـــدة أو كسرت صحنا وهذا موضوع لا يستحق عناء الوقوف بالباب، وما أكثر وقوع تلك الحوادث.. وصراخ حفيظـــة بلهجتهـــا الجنوبية لم يساعد الجيران على استيعاب ما قد حصل.

بعد لحظات شعرت حفيظة بأنها قد سارت مسافة عدة أمتار أبعد مما توقعت ومما كانت معتادة عليه، فكرت راجعة بسرعة وفتحت لي سكينة الباب وأنا ارتجف رعبا وخوفا وأبكي وأشهق ودخلت الدار آمنا.

لم تعد هناك نشوة عند شراء القيمر والخبز الحار، المغامرة فقدت طعمها ولذتها المعهودة وأصبحت عملية مملة روتينية أقوم بها بدون وعي وتفكير وبدون تطلع مسبق أو تخطيط في الليالي التى تلي تلك الصباحات، كما كنت أفعل في السابق بعد أن أختفى من خلف التنور ذلك المحيا المحبب والقامة الفارعة ورائحة صابون الهيل التي تنبعث من فوطة سليمة، ورغم علمي أن الجدة لويزة أهملت التنور وتفرغت لتوليد النساء ... إلا أنني كنت أسير بدون وعي إذ تجرني ساقاي إلى دربونة لويزة معللا نفسي بأمل عودة سليمة إلى عملها، وكل يوم أصاب بخيبة الأمل المتوقعة، ومع هذا لم أنقطع يوما واحدا عن هذا الحج اليومي لكعبتي المهجورة.

لم أجرؤ يوما أن اسأل لويزة: أين سليمة؟ وهل ستعود؟ ولماذا أختفت؟ كنت قد سمعت بأنها قد تزوجت من أرمل من

مدينة سامراء، ولقد أخذها معه، ولكنني كنت دائما أريد من يؤكد لي هذا، فإن الأمل والحنين والرغبة في رؤيتها كانت محور حياتي، ولذا لم أنقطع عن المرور قرب بيت لويزة حتى بعد اليوم الذي شاهدت فيه التنور مكسوراً مهشماً ومرمياً خارج بيت لويزة.

وقفت أتأمل التنور المهمل وارى سليمة من خلال جدرانه المهشمة.... رأيت وكأن لهيب النار يخرج من فوهته وسليمة ترمش بعينيها متجنبة سُحُبَ الدخان السريعة وما زالت تغذيه وتلقمه بالحطب وأسمع طقطقات تكسر الأغصان الحطبية اليابسة وأرى يد سليمة المكسوة بنتف العجين ترمي أرغفة الخبز المتطايرة وهي تخرج من فم التنور مسرعة لتستلقي بِدَعَةٍ واطمئنان على المنضدة المجاورة والمغطاة ببطانية رماديه مائلة إلى الاخضرار.

أن سليمة لم تكن موجودة إلا في مخيلتي، لابد أن ما قد سمعته صحيح إنها في سامراء ويقولون إن سامراء بعيدة جدا مسافة أيام وليال طويلة... آه من الليالي لياليَّ أنا قصيرة جدا أنام منهكا عند اكتحال الليل، أصحو قبل الفجر وكأنني لم أنم إلا دقائق لم أشبع نوما أبداً في صباي....أما

الآن في كهولتي وبسبب عرق مستكي العصرية أصبح لي في الليلة الواحدة نومتان: واحدة بتأثير العرق وأخرى بعد الصحو منه.

وازداد الصخب والضجيج في محل بدري واشتدت النقاشات في الدكان الخلفي الذي قد حوله بدري إلى ورشة لصنع العود وأصبحت هذه الورشة ليست جلسة للطرب وشرب العرق فقط بل لأحاديث متشعبة وتسمع اللهجات المختلفة الفلسطينية والبدوية والشامية والعراقية الشمالية والجنوبية.

كان علي الشخص الوحيد الصامت الذي يدخن أركيلته بهدوء ويسحب النفس الطويل منها وكأنه يتتبع مجرى الدخان داخل جسده، ثم يتعقبه بناظريه بعدما ينفثه من بين شفتيه ليحلق في سماء الورشة المزدحمة على شكل حلقات، لم يتدخل في النقاشات الحادة إلا أنه بين الفترة والأخرى يطلق كلمة أو بضع كلمات. تسكت الحاضرين وتذهلهم، ويعلو الصمت ويسيطر بقدسية ويهرب الضجيج والصخب.

كان صوت إبراهيم خال أولاد علي أكثر ضـــجيجاً وإلحاحاً، أحياناً يأخذه الحماس ويقف ملوحاً بيديـــه فيرمقـــه علي بنظرة معينة يصعب على قراءتها إلا أن إبراهيم يفهمها فيجلس بهدوء منكس الرأس.

لم أكترث لتلك الأحاديث أبداً إلا أنني كنـت ألـتقط كلمات مبعثرة تخرج من تلــك الأفــواه بأصــوات متباينـــة ولهجات متعددة، وأسمع كلاماً بالعربية الفصحى وأتوق لتعلم القراءة والكتابة وأتخيل نفسي ممسكاً بقلم وورقة وأقرأ شيئاً ما والجميع ينصتون إلي.

يوما سألتني سكينة إن كنت أعرف ســورة الفاتحـــة فهززت رأسي بالنفي وقلت لها:

- لم أذهب للملاية أبدا.

فأخذت على عاتقها تحفيظي الآية، وقالت: هذه آية تقيك كل الشرور وتفتح لك طريق النجاة وتنيـــر قلبـــك دائمـــا لا تنساها، كانت تجلس في الأماسي على مخدة مرميـــة علـــى حصيرة وهي تدير عجلة ماكنة الخياطة وتـــردد: "بـــسم الله الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين..." وأنا أردد خلفها ثم تسكت في منتصف الآية وتطلب مني أن أكملها ولم

تغضب مني ولا مرة واحدة إن أخطأت بل بصبر وحكمة تشير إلي أن أعيد ما قلت، وتشدد على صرف الكلمات بشكل صحيح وعلى ألا يكون لفظي قريباً من العامية أبدا وهكذا ختمت القرآن على يد سكينة.

تعلق قلبي بالآية التي تقول "**فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر**"، وعندما كنت أرددها بعد سكينة أحس بالهدوء الغريب والاطمئنان، وبجهد أخفي عبراتي عن سكينة إذ كانت تؤكد لي دائما ..."**وك ما بيجوز البكي للزلمة ... للقبضاي**".

ولكن عندما وصلنا إلى نهاية القرآن تقريبا وجاءت الآية "**إقرأ باسم ربك الذي خلق....خلق الانسان من علق.....اقرأ وربك الأكرم....الذي علم بالقلم**"...توقفت سكينة لحظ... شاردة النظر... تركت قطعة القماش التي كانت تخيطها على الماكنة تنزلق من بين أصابعها وتقع على الأرض الصفراء الذهبية... ولم تكمل الآية...واحتوانا سكون رهيب ... صمت ثقيل... ثم التفتت إلي وقالت بصوت حالم خافت به شيء من الصدى وكأنه نابع من مكان مجهول:

- **وك يا دعبول بدك تتعلم القراية والكتيبه**.

وبدون أن أعي صرخت من أعماقي... "عللوا يا خالة سكينة"... ما حدث كان قدسيا... وحي بالدعوة إلى العلم ... ورد بالتسليم المطلق.

وبدأت سكينة تقودني عبر رحلة القلم والورقة.

جاء علي والحبور يعلو وجهه، أزاح عباءته عن كتفيه وأرخاها على ساعده ومد يده إلى جيب سترته الأمامي الصغير وأخرج منه شيئا صغيرا ربما ورقة مطوية أو مظروف بني، وسحب منه صورة وقال لي:

- دعبول انظر هذه صورة يوسف.

نظرت إلى وجه الطفل الصبوح الممتلىء وقلت:

- ماشاء الله.....ماشاء الله.

قال:

- أخذته للمصور عبد الرحمن في الحيدرخانة إذ غداً موعد تسجيل التلاميذ في المأمونية...سيبدأ يوسف أول يوم دراسي له في مدرسة المأمونية وسأسجله بأسم يوسف جرجيس حمد...لن أدع اسم والدي حمد يضيع ... كان لي الخيار في تغيير اسمي، ولا أملك الحق في إضاعة اسم والدي.

يبهرني علي بحكمته وقراراته الغريبة ولكنه يجعلني أشعر بأنها منطقية وصائبة. قضينا يوما خريفيا جميلا، نسمات أيلول عذبة في العصاري. بقى عليَّ ساكتا معظم الوقت يقرأ في كتاب أحياناً ويسهو عن الكتاب أحياناً أخرى...نظراته تخترق أمواج دجلة الهادئة، وشبه ابتسامة تبدو على محياه ثم تختفي .. شعرت أنه يخفي زهوه بابنه ولا يريد التفاخر، فذهاب الصغير يوسف إلى المدرسة حدث مهم في حياة الطفل والأب.

دخلت غرفتي الصغيرة وأخرجت العود من كيسه المورد وذهبت لأجلس بقرب علي مقابلا دجلة وأعبث بأوتار العود لتخرج ألحان عليَّ المفضلة وبعض نغمات تشوبها روح الفكاهة، إذ غنيت مقطعاً من أغنية زكية جورج: "أنا بنت مكتب وبنت مدرسة أقرأ حساب وكل علم وهندسة" ... وبنوع من الدعابة...أغفل كلمات مقطع ورجلي تزوج فوك رأسي مرية، وأكتفي بدندنة النغمات.

نظر إلي طويلا وقال:

- من أين تعلمت فنَّ المجاملة غير المباشرة وأحيانا الصامته؟

قلت له:

نظرات عليَّ في ذلك اليوم لن أنساها أبدا، كانت مقلتاه تبدوان مسترخيتين جفونه تنسدل ثم تنفتح بهـدوء، يغمـض عينيه ويدفع برأسه إلى الوراء منتشيا، ويفتح عينيه وينظـر إلي بطرفيهما، لم تبتسم شفتاه بل مقلتاه، ابتسامة دعة وحبور ورضى كمن أنجز مهمة ناجحة رغم صغرها.

وجدت سؤالاً يطوف عبر نظرات علي، أحسـست أنـه يريد أن يسألني شيئا ما، أحيانا أجد نفسي أستطيع قراءة علي مثل الكتاب المفتوح. واستمر صمتي، وبقيت أصابعي تعبث بالعود تخرج نغمات عشوائية غير مخطط لها، ولكنها نغمات فرح وبهجة.

قال علي:

- سأرد على سؤالك.

قلت له:

- ولكنني لم أسأل.

ابتسم، هزّ رأسه وقال:

- اخترت اسم جرجيس أولاً لأنه اسم شائع لـــني في الموصـــل ومزاره معلوم، ويوسف أشقر فسيظن الناس أنه من الموصل.

قرارات علي غريبة ولكنها منطقية..!

لم أرى حفيظة ولا مرة منذ تركت بيتها، إذ أنهـــا قلمـــا تخرج من الدار، إلا أنني صادفت الحاج عبد الرزاق مرات ولكنه لم يميزني. كما وأنني كنت أتجنب دربونة حفيظة وإذا أردت أن أمر بالقرب من بيت لويزة فعليَّ أن أذهـــب مـــن الجهة الخلفية للدار وأخترق الطولة* وأسمع صـــهيل خيـــول العربنجي لأصل إلى الباب الخلفي لبيت لويزة وألقي نظـــرة كسيرة على التنور المقتول وأعود أدراجي خائبا.

سكينة تفضل أن أشتري لها القيمر من دكان خاجيك الأرمني، والخبز من الأفران الجديدة، تقول ..."خيو هيـــدول أنظف، الدكانة أحسن من هيدول إلّي قاعدين على الطرقـــات"، لـــذا كانت رحلتي تطول وأحاول أن أسرع لأصل بسرعة لإعداد الفطور. رغم أن فطور سكينة وبدري لم يكـــن بالـــضرورة شراء القيمر والخبز إذ أنها قد مونت الكثير مـــن الزيتـــون والجبن والزعتر التي جلبتها من سورية، لذا خروجي كـــل يوم لجلب الفطور أو شراء حاجيات البيت لم يكن ضروريا،

إلا أنني كنت أختلق الأسباب لأقنع سكينة بخروجي، ومن أحسن الأسباب أن خاجيك الأرمني ينوع بضاعته يوميا، وزيتونه شغل البيت، أو أن بهارات باسطرمته أنفس وأزكى والأفضل لو تجربها، وهكذا تعددت حججي للخروج من البيت. كما وأن وجود بعض الصحف والمجلات السورية التي بدأت منذ فترة تصل بغداد كان سببا مقنعا جدا لسكينة وبدري بخروجي في كثير من الصباحات المبكرة. المرور بالطولة والمشي السريع للوصول إلى الخرابة، أصبحت من طقوسي اليومية التي ترضي هاجسي لعلني أرى سليمة قد عادت إلى محلتنا.

خلال الأسابيع الأولى لتسجيل الصغير يوسف في المدرسة كان علي يأتي إلى الشريعة متحمسا منتشيا من الإثارة نتيجة الحكايات والحوادث الصغيرة التي يحكيها له يوسف عند عودته من المدرسة. أصيب علي بعدوى الحماس من الصغير يوسف، وكان رغم تحفظه في الإفصاح عن كل ما يدور بينه وبين ابنه إلا أنه أحيانا تأخذه نوبة من الاندفاع ويترك تَرَوِيه المعروف ويتحدث وعندما يصمت أجده يعيش عوالم المدرسة وابنه. ضحكته الرصينة الجادة تغيرت

إلى ضحكة مرحة لعوب، حتى تعليقاته أخذت طابعا طفوليا، به الكثير من العفوية والبساطة والتلقائية.

أخذ يطرب للأغنيات الساذجة مثلما يطـــرب للأغنيـــات الجادة والمقامات والقصائد.

مائدة العرق زادت ساعاتها في كل أيام الأسبوع إلا يوم الخميس، إذا قصرت ساعات النشوة، فهو اليوم الذي سيقضي فيه أماسيه ولياليه مع الصغير، إذ لا مدرسة في اليوم التالي. ستار الحوذي يبقى في البيت دائما ليلبي الطلبات المنزلية، إذ كثرت بسبب دخول يوسف المدرسة، وعلي يأتي بعربانتـــه إلى الشريعة وأحيانا راكباً مهرتة (كحيلة)، قلما يشاركنا أحد لياليا تلك، فهذه الليالي لنا وحدنا نبدأها بعد أن تنام محـــلات بغداد وأزقتها.

إزداد سخاء علي وكرمه، وأصبح الـــسمك المـــسكوف المادة شبه آليومية الأساسية من مائدتنا وكذا أكوام من لحـــم الأغنام، وكانت أغلب الأوقات تصبح من نـــصيب القطـــط والكلاب!.

دخل لون جديد من الغناء على لياليا، فبعد أن يصعد العرق إلى أقصى ذروته ويصل قمة رأسينا نأخذ بالوقوف واحدنا خلف الآخر، ونؤدي بأيدينا التحية العسكرية التي يؤديها التلاميذ في المدارس، ونردد أناشيد واشعاراً لم نكن نعرفها لنرددها سابقا، فنبدأ من عش هكذا في علو أيها العلم فإننا بك بعد الله نعتصم، ثم ترتفع عقيرتنا بالغناء فنبدأ من نشيد سمعت شعراً للعندليب إلى نحن الشباب لنا الغد، ثم نتحول... إلى وطني أنت لي والخصم راغم، وطني أنت كل المنى، وطني أن تسلم الخ. ولم نترك للإخوان فليفل أي نشيد لم نجربه وأحيانا نحوره حسب مزاجنا ليناسب كمية العرق التي شربناها، فيتحول نشيد نحن الشباب إلى نحن الشباب ناكل كباب نشرب شراب!.

وفي ليلة ونحن في قمة نشوتنا بأنفسنا والعرق، مسكت القنينة بيمناي دافعا بها أمامي وعلي رافعا كأسه بيمينه وأخذنا نردد بحماس مفرط وبصوت مجلجل عال ونحن وقوف:... "الدين في قلوبنا.... تررم والحق في يميننا...تررم نحن ... الشباب".. ولم ننتبه إلا على وقع صوت قوي من راكب في البلم قادما من ظلمة دجلة صائحا بنا "طاح حظ هيجي

شباب...سكارى .خوات كحبة"... أعادنا الصوت إلى واقعنا ولكنه لم يفلح بكسر نشوتنا، إذ سيطرت علينا موجة عارمة من الضحك الهستيري...وجئت بقنينتي مقربا إياها من كأس علي وصحت...جقة ...

استهوتني صناعة العود وأخذت تستغرق كل تفكيري وأهتمامي، صناعة دقيقة صعبة. ولكنها جميلة مثيرة مسلية بها الكثير من المجازفات والخيال. أخذت أتفنن في الزخارف الخشبية وكل عود كانت له شخصية ومكانة تختلف عن العود الآخر، رغم أن النغمات واحدة إلا أن لكل عود وقع خاص، رنين معين، لا يميزه حتى الموسيقي المتمرس، بل صانعه فقط إذ قد وضع فيه قطعة من فؤاده.

أخذت الطلبات تزداد عليَّ وأصبحت صناعة العود رائجة نوعاً ما، ولكن بدري لم يترك دكان حلاقتة، خاصة بعد أن أزداد عدد زبائنه وفتح فرعا للنساء وأخذ يدرب الفتيات المحليات على الصنعة. ورغم التقاليد، فإن بعض النساء من طبقات معينة لم يمتنعن عن زيارة الدكان والإصرار على أن بدري يجب أن يصفف شعرهن.

دكان بدري أصبح قبلة للناظرين، واجهته زجاجة كبيرة مستورة بستارة من الداخل وملصوق على الزجاجة من الداخل مواجها للشارع والمارة صور لوجوه ورؤس نساء مقتطعة من المجلات الأجنبية، هذه الصور تجذب الناس عامة وغالبا ما كان الصبية يقفون للتفرج على صور النساء ويفاضلون بينهن. إن مدخل الدكان كان من شارع النهر مما جعل النساء المتسوقات من محلات الفضة والذهب ينتبهن لدكان الحلاقة. وعلق بدري قطعة كبيرة على واجهة الدكان (كوافير ستاتي) مما جعل النساء ينجذبن للكلمة الاجنبية...!

ورشة العود أصبح لها زبائنها وبدأ المحل يجلب النظر. سجية بدري الطيبة السمحة والمهنتان اللتان يمارسهما أضفتا على المحل بعدا غير معروف سابقا، بعدا جديدا اختلط فيه الفن والصنعة بالحياة اليومية.

كثرة الزوار بدأت تلفت نظر شركة بيت اللنج والجلسات الحامية والنقاشات والأصوات الحادة أحيانا تتجاوز مساحات الدكانين لتصل إلى الرصيف وتتعداه إلى منتصف الشارع.

السهرات الليلية لمنتصف الليل في الليالي الربيعية والصيفية تجتذب الزوار من خلفيات متباينة. هناك من يرتدي

الملابس الإفرنجية أو المحلية بأنواعها، كل لباس يفصح، عن هوية وأنتماء صاحبه: شيعي، سني، مكتبلي، دليمي، مصلاوي، نجفي، كردي، تركماني، وأبو كشيدة، وغترة، وعمامة وسدارة فصيلية.

تبلورت نقاشات حول إفرازات الحرب والاحتلال الذي يختفى خلف ستارة الانتداب أو يأخذ صيغة متقدمة أخرى مثل المعاهدات والاتفاقيات. والفضائح والفساد الإداري والسيطرة المبالغ فيها أو عدمها. أسماء كثيرة تتردد باستياء واستخفاف واستهزاء موند ولجمن والإضراب ورسوم البلديات وطبع الأصابع وال سي آي دي، والدونكي، وتتردد أسماء صحف ومقالات وحركات ومنظمات ومصطلحات، قومية صهيونية، عروبة، بروليتاريا، وطنية، استقلال بلشفية، ويتكرر اسم بلفور بكثير من الحقد والحنق!

شعرت انني لابد أن أرافق سكينة وبدري في رحلة العودة. بعد اطلاق سراح بدري من دائرة التحقيقات الجنائية قرر أن يعود إلى سوريا، كان خائفا على سكينة إن تبقى وحيدة لو تم توقيفه مرة أخرى، ذهبت معه إلى مقر شركة

نيرن في الصالحية لحجز رحلة العودة وأصر بدري علي بعدم مرافقتهم، ولكنني لم أسمع، قلت:

- سأوصلكم إلى الرطبة وأعود.

قال:

- الطريق غير آمنة وأعمال السلب مستمرة على طريق بغداد فلوجة الرمادي.

قلت له:

- مع نيرن الطريق آمنة وسنخرج ضمن قافلة.

هيأت سكينة متاع الرحلة وبدري اهتم بتوفير الماء بكميات كبيرة. وجودي معهم سهل عليهم أخذ كميات أكبر من المتوقع لمساعدتي لهم على حمل كل ما هو ثقيل، وبدأت رحلة العودة. تركنا بغداد من مقر نيرن في الصالحية، اتجهنا نحو طريق أبو غريب وسارت سيارة نيرن الثقيلة المحملة بالناس والبضاعة بتمهل وتأني.

الرطبة جرداء تماما أرض واسعة خالية إلا من بعض باعة الدهن الحر والأغنام وبضع سيارات نقل ومكان شبه مهجور يسمى بالمقهى تباع فيه الأكلات البسيطة مثل العنبة

والصمون والأبيض وبيض والطماطة، تكاد هذه المدينة الحدوية أن تكون معدومة البشر إلا بعض القادمين من سوريا. في نقطة الحدود نزلت من السيارة لأساعد بدري في إجراءات الجمارك ولم يأخذ ذلك وقتا طويلا.. أخذ بدري جوازت السفر المختومة نظر إلي طويلا. ثم قال:

- هلق الحكاية صارت جد مش هيك؟

طفرت دمعة من عينه تلتها أخرى لم يحاول إخفاءها بل الحقيقة استرسل في البكاء المسموع وقلت له بلهجة سكينة:

- ولو... ياخيو الزلمة القبضاي ما بيبكي....وشهقت بالبكاء.

شعرت أن مرحلة من عمري اقتطعت رغما عني، كنت أريد لحياتي أن تستمر مع بدري وسكينة. جزء حي من كياني قد استؤصل ولا إرادة لي في منع ذلك أو وقفه. كل ما يحدث في حياتي مفروض عليَّ قسرا وعليَّ أن اتأقلم مع هذه المستجدات غير متوقعة وأسير حياتي وفقا لمتطلبات تلك التغيرات. ما أصعب ذلك!

جاء علي مساء أحد الأيام وبيده رسالة وقال:

- هذه من بدري وسكينة إلها لك، وصلت على عنواني.

لم أصدق نفسي، الفرحة بالرسالة كانت عارمة لـم أرد أن اقرأها، فورا بل ذهبت بسرعة إلى غرفتي وأخرجت قنينة المستكي وأعددت المائدة، تعجب علي وقال:

- ألن تقرأ الرسالة؟

قلت:

- طبعا بعد تهيئة الجو والنعنشة لأقرأ وأستمتع فهذه الرسالة لن تقرأ على (على ريق ناشف)، بل يجب أن أبلل ريقي وأدهنه بهذا المستكي وسأقرأ بصوت عال وأستمتع.

أخرج عليٌّ العود من غرفتي ونزع عنه غطاءه المورد. نظرت طويلا إلى ذلك الغطاء والورود الربيعية الصارخة الألوان، أعادتني إلى دنياي الآمنة الرغدة، منذ سفر بدري وسكينة، العود أخذ يستحوذ على كل أوقاتي، فهو صلة الوصل الروحية التي تربطني بهما وتقربني إليهما رغم بعد المسافات، الورود المنثورة على غطاء العود تحكي لي عن غوطة الشام والبساتين التي تحيط بالبردوني، وتعيد على مسامعي صوت سكينة وهي تصف ساحة المرجة وسوق الحميدية والمسجد الأموي وهشام، "آه منك يا هشام أغنيت الشام بحكمك أنت الذي ملكت الدنيا وحولتها إلى بساتين

وجنان"، هكذا قالت سكينة .. سكينة تتباهي بأنها بنت الأمويين وبنت عمر عبد العزيز وبنت عبد الملك وبنت هشام ولا تستحيي من ذلك... تقول نحن أوصلنا العلم إلى أماكن لم يكن ليصل إليها لولانا..! سكينة سكينة خالتي الحبيبة تقول رسالتك لم يصدق أحد في الشام أن بدري أوقف لأسباب سياسية وبحجة إقامة تجمع غير مرخص به....صوتك يا خالتي ما زال يرن في أذني عندما علمت بتوقيف بدري قلتِ:

- شو ها الحكي يا زلمة اينو تجمع هيدول صحاب والتمو مع بعضن وسكرو وضحكو... شو هالمسخره..... اينو مبادئ هدامة.... وبدى تهدم مين ....ما هو البلد مهدم لحالو... وما في حدا بيعمروا.

في السكلة لم يكن مهما أن أهيّئ فطورا أو أذهب لشراء صحيفة، كان وقتي ملكي إلى حين حضور العمال حوالي الثامنة صباحا، ولكني بقيت على عادتي أسير كل صباح أقطع الأزقة الضيقة وصولا إلى بيت لويزة وقوفا بالخرابة، علني أجد سليمة، كنت أعلم في قرارة نفسي أنني أطارد شبحا، خيالا لا وجود له، إلا أنني لم أستطع التوقف عن هذه المطاردة.

يوما ما لم أجد التنور اختفى، وكان في الخرابة بعض العمال ينظفونها من الأنقاض والأزبال المتراكمة وبقايا الحطب الذي كانت تسجر به سليمة التنور، والصفيحة الصدئة التي كنت أجلس عليها أغلب الأوقات بانتظار دوري لأخذ الخبز، بحثت كثيرا عن التنور ولم أجده وشعرت بغصة في قلبي، سألت العمال:

- أين التنور المكسور.

قالوا:

- لا نعرف ربما عمال الأمس رموه، هل هو لك.

وسألتهم:

- من هم عمال الأمس.

قالوا:

- لا نعرف، نحن عمال من المسطر* المقاول كل يوم يختار عمالا جدداً حسبما يناسبه.

ضحكت من سخفي وحماقتي، ما جدوى السؤال عن عمال الأمس والتنور المكسور!

كان وجود التنور يشيع فيَّ أملاً، رغم يقيني بعدم إمكانية استعماله إلا أنه كل ما تبقى من سليمة.. قال أحد العمال عمي سيبنون خاناً هنا، وصاحب الأرض يريد أن يستفيد من الطلب الكثير على البيوت للسكن، ولكنه سيبني خاناً كبيراً ليؤجر الغرف وسيبني دارا ملاصقة أيضاً. حتى هذه العرصة* الخالية سوف تنتزع مني، خيال سليمة خلف التنور هشم ودمر وذهب لا أعرف إلى أين أخذوه مني عنوة رغما عني حتى الخيال حرمت منه...!

عدت أدراجي، مررت بالطولة رأيت العربنجي يربت على ظهر الحصان وينظفة، اقتربت من الحصان، وضعت يدي على رقبته كمن يريد أن يودعه فلن أمر من هنا ثانية، ما جدوى مروري والخرابة ستمحى والتنور اختفى.....سأبقى أطارد شبح سليمة في مخليتي فلن يستطيع أحد انتزاعها من ذاكرتي. جلست في مقهي المربعة أحتسي الشاي بالهيل وأستمع للراديو ومنلوج عزيزعليَّ وهو يقول ويردد: "منه منه كلها منه مصايبنا وطلايبنا كلها منه..." نعم يا عليَّ مصايبي وطلايبي كلها أزدادت منذ أن تركتني أدركت الآن أن لا أصدقاء لي أبدا وكيف يكون لي أصدقاء وأنا الذي لم

يكن لديه طفولة ولا صبا، الصداقة تبنى لنبة بعد لبنة منذ الطفولة والصبا.

أنا حُرمتُ من المرحلتين، وجدت نفسي فجاءة وعلى غير توقع شاباً بالغاً أصنع العود وأعزف عليه في ورشة بدري التي يملؤها البالغون الذين تجاهلوني كإنسان وأهتموا بي كشخص غريب تماما، إلا علي الذي تعاطف معي كإنسان كامل له كيان وليس ولد الورشة والصانع اليتيم لدى بدري.

منذ رحيلك يا علي وإلى الآن أعيش حياة الوحدة القاتلة، العرق ما زال رفيق دربي اصبح وأجبه أن ينسيني وحدتي وهمومي وليس إمتاعي، ذهبت المتعة والحبور معك. ساعات الانشراح والأحاديث المعلنة والمستترة التي كنا نتبادلها ذهبت، أحادث من ومن يفهم صمتي ويرد عن أسئلتي التي لم أسألها...! من يدخل بالبستة على المقام الذي أقرؤه.....لا أحد يفهم المقام ويستانس لسماعه ويعرف الأخطاء ويقدر الأداء الجيد مثلك يا علي.!

ما زال يرن في أذني صوت ستار العربنجي، في ظلمة تلك الليلة التي أختفى فيها القمر تماما والسماء مغطاة

بندف من الغيوم، وهو يصيح "ولك خايب دعبول كوم... اصحى... دعبول ياخايب اصحى".. ليتني لم أصح...ولم صحوت وعلى أي دنيا أفقت... "اصحى دعبول مصيبة برأسك دعبول.....لك اصحى كوم يالله عاد اويلاخ يا دعبول...سوده عليك ستار ..سوده عليك دعبول.."

ما زال استكان الشاي في يدي جاء صانع الجايجي وقال:

- استكان لاخ عمي.

أشرت له برأسي بالقبول. جلس على التخت بالقرب مني ثلاثة رجال لم أميزهم، دار بينهم حديث عن تهريب المشروبات من مخازن معسكر الهنيدي وعن الحرب والأموال الكثيرة التي تثري التجار والمهربين والبضاعة التي يرتفع سعرها يوميا.

غادر الرجال الثلاثة المقهي، حيوني وقالوا:

- في أمان الله أخينا.

قلت:

- في أمان الله أغاتي.

جاء صانع الجايجي بصينية فافون كبيرة وأخذ يلم الاستكانات الفارغة ويرتبها بعناية فائقة محاولا الاستفادة القصوى من وسع الصينية، قلت له:

- من هولاء؟

مشيرا إلى مكان جلوس الرجال الذين تركوا المقهى توا والذين شاركوني نفس التخت ضحك وقال:

- "كلاوجية قجغجية...!"

خرج رواد سينما الزوراء جمهور متحمس لرؤية فلاش كوردن أصوات صياحهم وضجيجهم عم المقهي، كثير منهم دخل المقهي وأزداد الهرج والمرج. بقيتُ جالسا على تخت المقهي أحاول أن أسلي نفسي بما أرى، شارع الرشيد مزدحم في مثل هذه الأوقات وقت أنتهاء العرض الأول للسينمات، الدكاكين والمحلات تبقى مفتوحة إلى ما بعد الثامنة مساء المطاعم تروج بالزبائن أصوات السيارت تختلط بأصوات باعة السميط والأبيض وبيض والشلغم، نساء سافرات صبايا جميلات أطفال بملابس المدارس، لم يتسنّ لهم الوقت للذهاب للبيت لتغير ملابسهم قبل فترة بدء السينمات خليط من الناس بدوا غرباء عليَّ تماما لولا تميزي لبعض الكلمات التي

تخرج من أفواههم، بالك، وخر، مساء الخير، تعال هنا، أعبر الشارع، بيش الحلاوة، ساعة خمسة، الله أبوالخير أغـاتي، تعالوا، مولاي ، تاج راسي، عـدنا حلقـوم أ..... د..... ج.....ض ....س..! حروف كثيرة ترتبط ببعضها لتـشكل كلمات لا حياة فيها بالنسبة لي، ولكن تلك الحروف التي كان يلفظها علي ويشكل منها كلمات يرددها خلال الغنـاء كنـت اطرب لها وانتشي حد الشبق، والآن كل هذه الكلمات مجرد كلمات لا تعني لي شيئا أميزها ولا أحس بأهميتها.

قال لي علي "لماذا لا تتزوج يا دعبول" الحقيقة لا أدري لماذا ....ربما لأنني أطارد شبحا وأحلم بخيال ..البحث عن مـن ضاع يستغرق العمر كله، لم أفكر بالموجود كنت أتطلع لمن أختفت وذهبت كنت أعرف أنها أكبر مني قليلا، ولكن هذا لم يشكل مانعا لعدم التفكير بها والتطلع إليها ..... أحياناً كنـت أتساءل هل كنت أبحث عنها هي أم عن أمي وأختي فيهـا، عائلتي التي أحترقت ونار تنور سليمة وسليمة كانـت هـي نقطة الوصل بالماضي لا أدري هل ألسنة اللهب هي التـي جذبتني إلى سليمة أم أن سليمة هي اللهب كله والشوق كلـه والحنين كله، حنين لمن؟ لأي شيء؟ لا أدري مجرد حنـين يسحق الضلوع ويختبئ بين الحنايا والحشا.

مقهى الملا عبودي في المربعة أصبح لي بيتـــا ثانيـــا، أسهر فيه إلى أن يغلق، أختبئ فيه من الوحـــدة والـــضجر والملل من الليالي الطويلة والأماسي الثقيلة، المقهي محطـــة أنتظار إلى أن يحين موعد المستكي فموعده مصحوب برنة جرس في رأسي، جرس يطن في أذني يقول لي ساعة العرق حلت وحانت، أجرجر ساقي وأشحط بنعالي وأسمع صـــوت قدميَّ تنسحبان على الرصيف بكثير من الكـــسل والتـــواني، ولكن صوت الجرس يحفزني للوصول بسرعة إلى الشريعة والسكلة، وأبدأ طقسي اليومي، وما أن تنزلق الجرعة الأولى من العرق وتدخل جوفي حتى تغرق فيها كل الأحزان وهموم الوحدة تبدأ بالتشظي والذوبان وتتبخر من رأسي.

ويفعل المستكي مفعوله وأحتضن سميري العود وأغفـــو وهو في حضني، نومة السكران، لأصحو من النومة الأولى وأنحي العود جانبا برفق وحنو وأنام النومة الثانيـــة نومـــة الصاحي لا السكران .

لم تعد تهمني محلة الحاج فتحي كثيرا، لم أخترق أزقتها منذ فترة طويلة لا أدري كم، يبدو لي أنني تعودت تجاهـــل حساب الأيام والأشهر والسنين، الحياة في بيت حفيظـــة لـــم

تترك لي الحس بالأيام وباختلاف الفصول ومرور السنين. الرتابة كانت مسيطرة ولم يكن هناك حاجة للإحساس بالفروقات مهما كانت، الفرق بين الليل والنهار الشتاء والصيف كلها نفس الشيء أكل وتنظيف ونوم، روتين استمر لا أعرف كم ويبدو أنني قد تعودت عليه ما زلت أعتبر نفسي جاهلا بالعد والقراءة. رغم أجادتي كليهما الآن إذ إنهما دخلا حياتي متأخرا لم يصبحا جزءاً من كياني وطبيعة ثانية لي.

ولكن الحياة في بيت سكينة وبدري كانت مختلفة ملونة مثيرة، لكل فصل أهميته وطقوسه وكل أجزاء اليوم لها خصوصيتها وتفردها شرب القهوة من(الركوه) كما تسميها سكينة وقراءة الفنجان يجب أن تتم صباحا بعد الفطور ثم قرآءة الصحف والحديث عما يدور في البلد، والذهاب إلى ورشة بدري كل هذه المثيرات كان لها طعم مختلف، الأخبار تختلف يوما عن الآخر، وفنجان القهوة يختلف كل يوم عن الآخر، يوما يحكي عن رسالة في الطريق ستصل بعد ثلاثة أيام ويوما يحكي عن عرس محتم خلال سبعة أيام أو سبعة أسابيع ولن تطول المدة إلى سبعة أقمار قادمة، ويحكي يوما عن طريق مفتوح ورزق قريب وعن عين حسود يجب أن تفقأ وعن امرأة غيورة نمامة لابد من تجنبها!

متى عدت إلى قطع أزقة الحاج فتحـــي مـــرة ثانيـــة لا أعرف بالضبط ولكن أذني التقطتا في يوم ما حديثا يدور بين (القجغجيه) كما سماهم صبي القهوة عن امرأة خبازة قريبـــة احدهم عادت من سامراء إلى محلتها القديمة بعد أن ترملت.. أم حسين عادت ومعها مبلغ من المـــال ... وأشـــترت بيتـــا ملاصقا للطولة والخان.....وزاولت مهنتها القديمة.....خبز الخبز، أنها خبازة.....ياإلهي قفزت من مكاني ملدوغا... لقد عادت ....عادت ....عاد حلمي ...سليمة لم تكن شبحا كانت حقيقة ....لم أنتظر عبثا كنت أعلم علم اليقين أنهـــا ســـتعود عادت أرملة ..!

يا علي لو تعرف، لقد عادت سليمة أين أنت يـــا علـــي لتشاركني نشوتي هذه الليلة فسأحتفل أنا والعود سوية، بـــل ربما سأملأ لك قدحك وأجعلها كأسا مترعة بـــأجود أنـــواع العرق اليوم يحل فيه شرب عرق ممتاز عرق يختلف ربمـــا عرق شركة (مَسيّـــَح) أو ربما زحـــلاوي لأشـــرك بـــدري معنا..... سنحتفل اليوم يا علي أنا وأنت وبدري.....نعـــم سنشرب الزحلاوي سنشرب.. عرق.. أبو سعدة !

وضعت سلة الفجل فوق رأسي ولففت وجهي باليشماغ مغطيا نصف وجهي، وسرت متجها صوب العقود التي أعرفها جيدا، وجدت البيت قرب الطولة منارا بضوء كهربائي، وقلت في نفسي: أمورك جيدة يا سليمة استطعت إيصال الكهرباء ألى بيتك، لم أكن متاكدا من أن سليمة تسكن الدار المجاور للطولة وللخان الجديد الذي بني على الخرابة، ولكن الحديث الذي سمعته من القجغجية كان يؤكد ذلك، لم أستطع أن أسأل أحداً، الجدة لويزة إذا مازالت تسكن نفس البيت، ولقد تركت العمل في المجيدية وأصبحت قابلة تشتغل لحسابها فقط...أولادها عزيز ويوسف أراهم بالمصادفة وهم لا يعرفوني أو بالأصح لا يميزوني حاولت مرة أن أتجرا وأسالهم عن عودت سليمة ... إلا أنني تراجعت... فما كان عليّ الآن سوى أن أدعي بيع الفجل وأدور في المحلة أنادي جاوش العشا يا فجل، لعل سليمة تخرج من البيت لتشتري الفجل، اقتربت من البيت وجدت الستارة تغطي نصف الباب المفتوح حاولت مد رقبتي قدر الإمكان رافعا صوتي:

- فجل..... يا فجل جاووش العشا يافجل.....تازة وريان الفجل.

جاء صوت من داخل الدار.

- يمه حسين أشترِ لنا باقة فجل.

خرج شاب غر من الدار وناداني قال:

- بيش باقة الفجل عمي.

لم أستطع أن أرد عليه ....تلعثمت وترددت ....قال:

- بيش الفجل عمي.

قلت بتردد:

- عموالله تنطيه رزق.... نعمة الله.

مد يده وناولني بعض الفلوس قلت له:

- الله يطول عمرك ابني..!

كان الصوت صوتها لن أخطئ في معرفة ذلك الصوت...

سرى صوتها في جسدي كله، وسمعت عظامي تردد صداه طوال الليل... يمه حسين اشترِ لنا باقة فجل..... صوت مليء بنغمات البيات والصبا وأجمل من كل ألحان المقامات والبستات والقدود الشامية وأغاني الطرب الحلبية...صوت

ظل يسحبني معه إلى مسافات بعيدة لم أكن أعرفها، وعاد بي إلى أيام تعمدت نسيانها..... يمه حسين اشترِ لنا باقة فجل، هذه الكلمات كانت أبلغ من كل الأشعار التي قد حفظتها... آه يا علي لو كنت هنا لضمنتها بيتا من الشعر أو جعلتها بستة تدخل بها على مقام الرست..... عدت لي يا سليمة...أكد لي صوتك أنك عدت وعودتك ستكون لي!

جلس ستار العربنجي يلطم رأسه ويضرب وجهه ويقول لي:

- ولك دعبول لازم تيجي ولك شلون ما تجي.

...لم أرد عليه فقد قر قراري كلا لن أذهب إلى بيت علي.. لم يشركني عليَّ بحياته العائلية...زرته مرة واحدة في بيته ولم تتكرر الزيارة ولن أذهب الآن.

- ولك دعبول ميصير مو من الأصول ولك ابن الزفرة لازم تيجي، ولك لو اعرف أجرك بالقوة لازم تيجي.

لم أرد عليه... ذهبت الى زاوية الغرفة ومسكت بالعود... خرجتُ من غرفتي الدافئة في تلك الليلة الشتائية الباردة والحالكة، وجلست قرب شاطئ دجلة ماسكا العود بيدي.

- ولك بومة ابن البومة هسه وكت عود ومزيقة.

صرخ ستار العربنجي:

- ولك اتخبلت ....دعبول لازم تيجي ويايه...

بقيت صامتا والعود كذلك نسرح كلانا في أمواج دجلة المعتمة ولم أرد عليه... كلا لن أذهب لا أريد أن اؤكد بعيني ما سمعته أذني من ستار... لا لن أذهب... لن أشارك في طقوس يرفضها علي تماما... أقترب ستار مني وهزني من كتفي:

- ولك خايب أصحي بعده الزقنبوت برأسك بعده العرق برأسك.

قلت له:

- أنا صاحي العرق طار من رأسي.

لم أتحرك من مكاني، وأعتصمت بالصمت المطبق، جلستي ورفضي الحركة والمشاركة في تشييع علي كان أحتجاجا على الموت ورفضا له، لن أسمح له أن يسيطر عليّ، كلا لن أرى علياً وهو يغسل ويوارى التراب حسب شريعة لم يؤمن بها مطلقا. علي سيبقى معي ومع العود لن

أسمح للموت بالتغلب عليّ ولن يأخذ علي مني، ولن أشارك بدفنه وفق معتقد كان قد نبذه ورفضه، علي سيبقى معي كما كان قبل ساعات.!

نهض ستار واقفا وقال:

- ولك الفجر سينشق بعد قليل ولازم أروح للبيت اللوازم والطلبات كثيرة ياالله يا دعبول اتعوذ من الشيطان واتوكل على الرحمن

... ولكنني لم أتزحزح عن موقفي، بقيت حاضنا العود جالسا على حافة النهر الترابية في ليلة شتائية قارصة البرد... ساكتا ... واجما ساهيا ... واجهني ستار... في عتمة الليل وبصق ... على الأرض صائحا:

- تفوعليك يا نذل يا كواد يا أصل سز، تفو عليك يا أخ الكحبة... نسيت الأصول والعشرة...

وأبتلعه ظلام تلك الليلة الشتائية الباردة التي غاب عنها القمر..

احتواني شفق الشمس الغاربة وأنا ألف اليشماغ حول رأسي ووجهي ومحاولا التخفي وضعت سلة الفجل فوق رأسي سرت بضع خطوات وصلت الطولة تجنبت المرور

بها استدرت حول البيوت التي أعرفها جيدا ووصلت قرب بيت سليمة وبدأت بالمناداة على الفجل، كان الباب مفتوحا والستارة نصف مسدلة والمصباح الكهربائي مضاء، ناديت بصوت عال:

- **فجل ريان وحلو يا فجل.**

سمعت صوت سليمة تقول:

- **هذا يا فجل الناس كلها تعشت.**

وصوت مصطفى الدلال القجغجي يقول.. كلاما غير مفهموم.

اقتربت من الباب الموارب ووضح صوته وهو يقول لها عيني أم حسين إذا الفرن يطلع مية صمونة كل ربع ساعة ليش الخبازة توكف على التنور... ردت سليمة مية صمونة...لم تستطع ساقاي أن تحملاني جلست بالقرب من الباب وسلة الفجل أمامي... وتحول رأسي كله إلى أذن كبيره تلتهم الكلمات... عيني أم حسين باجر.... أخذج لذاك الصوب ... تشوفين خاجيك الأرمنى ...الفرن.....كانت الكلمات تضيع علي وتتيه وسط دهشتي وخوفي وذهولي.

يا خالة سكينة كيف أصل إليك ...لاستنير بكلامك ونصائحك ياترى ماذا كنت ستقولين لي كيف كنت ستوجهينني .. هل كنت سابوح لك عن سليمة؟ وحتى لو لم أبح كنت تعرفين كيف تستنطقيني وتجعليني أتكلم....بدونك أعود إلى التخفي.. تخفيت خلف أختي وأستعرت أسمها وجنسها قبل أن أعرفك والآن اتخفى مرة أخرى .. بعد ذهابك وأختفائك من حياتي...أنتحلت شخصية أخرى... وأصبحت بائع الفجل ذاك البائع المسكين الذي كان يسير امامي بالصدفة في دربونة سليمة مناديا على بضاعته وأنا أحاول اللحاق بمصطفى الدلال ... أتتبع خطى مصطفى لأتاكد من زيارته لسليمة.

جلس مصطفى على التخت الخشبي في قهوة الملا عبودي في المربعة نازعا نعاله لاماً ساقيه تحت وركه في جلسة مريحة جدا وهو يقول لأصحابه:

- الفلوس مسكورة .. أم حسين زوجها المرحوم قرابة نسب ومعرفة قديمة لي ورثت عن زوجها مبلغا من المال وساستطيع أقناعها بالمشاركة معنا.

ودار نقاش عن البضاعة وعن خاجيك الأرمني والكثير من الغمز واللمز....وصوته يعلو بتباهي وبنغمة الصياد المنتصر.

- أي ..بلي.... أخي... سليمة أم حسين....أي بلي نعم أخي ما زالت شابة .....لا ..لا...حسين أبن زوجها ربته هي..... وأبو حسين عندما تزوجها كان شيخا. ....أي بلي نعم.... كبير (قلاقيلة عاطلة... حتى بالهندر ما تشتغل)

وعلا ضحكه...وهو يبرم بيمينه شاربه .. وبيساره يعبث بحبات سبحة اليسر.

سكينة وعلي، كيف لي أن أعرف خطاي بدونكما...ماذا سأفعل وسليمة ستخدع، بيعت المرة الاولى لرجل أرمل وهربت من سخام التنور، والآن أيضا تريد الهرب من سخام التنور وستقع تحت قبضة رجل آخر... اليس لسليمة منقذا إلا الرجال؟ وأنا الست رجلا؟ لم لا أستطيع إنقاذها؟ تذكرت كلامك يا سكينة كنت تقولين لي عندما أخطئ (اللي ما بدوش يصلح حالو ما حدا بيصلحو) كيف لي أن أجعل سليمة تحس بما سيقع وأنها ستخدع بالحماية والأمان...كنت اتمنى لو كانت الجدة لويزة أكثر حنانا فلربما ساعدت سليمة وأنارت لها

الطريق مثلما فعلت هي. قامت برعايـــة أطفالهـــا وربـــتهم وتعلمت مهنة جديدة بدون مساندة رجل، ترملت وهي شابة لم تخدع بالحماية لم تجد الأمان إلا في نفسها وكدها وســـعيها، ولكن الجدة لويزة لا تحب مساعدة أحد ودفعت سليمة إلـــى القبول بالزواج دفعا...بشدتها وصـــرامتها .. ســـكينة مـــاذا تقولين ماذا عساي أن أفعل...قولي لـــي مـــاذا أفعـــل .. آه ياعلي.... أين أنت... لا سند لي ولا ملاذ ســـوى كـــأس العرق والعود.

- جالغي – ما يطلق على التخت الشرقي او الفرقة الموسيقية والتي افـضلها تعود الى موسيقيين يهود.
- البلم- الزورق
- جرداغ- بناء صيفي مؤقت يقام من الحصير والبواري التي تستخرج مـن النخيل وعادة يقام على جزيرة وسط دجلة.
- الكاورية-الجزيرة او الضفة الواسعة للنهر والتي تنفصل عن الجرف بحاجز مائي
- الشريعة- ما يطلق على شواطئ دجلة حيث تكثر فيها الصناعات التي تنمو قرب الانهار وباللغة المكان الذي يقود الى حيث تزتوي منه الحيوانات.
- حنفية- صنبور المياه
- قران- ما يطلق على الـــــ – ٢٠ فلسا -القطعة النقدية المعدنية.
- جف قيم-اسلوب انيق في كيفية ملئ الفراغ بين الطابوق عند البناء.
- درز – اسلوب اقل انانقة ورهافة في ملئ الفراغ بين الطابوق.
- قصر شعشوع – بيت لتاجر يهودي معروف سكنة الملك فيصل الاول عند توليه عرش العراق ويقع على ضفة النهر في الاعظمية وما يزال قائما.
- دربونة- زقاق
- النزاح – الرجل الذي ينضف ويفرغ البالوعات
- سكلة الخشب- مكان حفظ مواد البناء ومنها الخشب
- بيت لنج- فرع لشركة الهند الشرقية لهم بناية مميزة في شارع الرشيد
- جاووش العشا- تعبير تركي تقال لآهمية الشئ وهنا يقصد الفجل
- سماكة -صيادو السمك

- سكف السمك- طريقة عراقية مميزة وفريدة في شوي السمك
- الخناق والكاولية- صفات تطلق على كائنات لاخافة الاطفال وارعابهم الاولى ربما نوع من الامراض والثانية تعني الغجر.
- ابيض وبيض- البيض المسلوق والذي يباع مع رغيف من الخبز والطرشي.
- رحلو- اسم تصغير لراحيل الاسم النسوي اليهودي الشائع
- حل وشد- طريقة انيقة في ربط الاجزاء الخشبية.
- التسلوم- البدء بانتهاء المقام والوصول الى الاغنية او البستة
- حليب السباع- العرق
- وزرة-قطعة كبيرة من القماش بالوان زاهية تلف حول وسط الرجل في الحمام.
- زبون وصاية –ملابس رجالية شعبية
- الكاشي- البلاط
- الحب- اناء فخاري كبير لتبريد الماء وحفظه
- التنك ومفردها التنكة- القلة او الجرة الفخارية لشرب الماء
- البيتونة – غرفة صغيرة تشيد على السطوح لخزن المفارش والاغطية خلال فصل الصيف بعيدا عن الشمس الحارقة
- التيغية- سياج السطح
- زمالة- حمارة
- كرجيه- نساء جميلات من جورجيا او كروزيا كما تسمى باللغة الروسية
- بنت الجلب- بنت الكلب
- وخري- ابتعدي

- الكرب –جزء سميك من سعفة النخلة والذي يكون قريبا من جذع النخلة
- البرحية– نوع غال من النخيل وتمره لذيذ الطعم
- حاشا قدرج– حاشا قدرك
- الخبز ما لاحك هسة –لم يجهز الخبز بعد
- الفوطة– غطاء راس لونه اسود للمرأة وابيض لمن ادت فريضة الحج.
- ما ضميتي النا– لم تترك لنا بعضا منه
- الكاظم –ضريح الامام موسى الكاظم
- الطولة– الارض الفراغ المتروكة والتي تستغل من قبل اصحاب الحيوانات
- جقة– تعبير عن قرع كؤوس العرق
- المسطر– المكان الذي يتجمع فيه العمال لغرض استخدامهم من قبل من يحتاج اليهم في اعمال مؤقتة
- العرصة– في اللغة الارض الفضاء
- كلاوجي وقجغجي –محتال ومهرب
- الزقنبوت –كلمة اعجمية تطلق على الاكل الزقوم
- صمونة– نوع من الخبز العراقي يختلف شكلا عن الرغيف التقليدي
- قلاقيلة عاطلة حتى بالهندر ما تشتغل– اشارة الى طريقة قديمة لادارة محرك السيارة وتعني عدم القدرة الجنسية عند الرجل.

كل الشخصيات حقيقية ما عدا سليمة مستعارة من قصة النخلة والجيران لغائب طعمة فرمان ترتيب الحوادث مبني على الخيال وليس واقعيا.

هي رحلة اذن في زقاق بغدادي حميم، مرة تراه مرسوماً في باب السيف بكرخ بغداد العباسية وثانية تسير به بين الرصافة والجسر، والزقاق هنا يتبدل ويتلون وربما يرقص بعد شفطة مدهشة من كأس عرق مستكي سمين يتناوح على صوت منبثق من جرداغ منصوب على صفحة الشط حيث الرست والبيات والحجاز والإبراهيمي والصبا ومفردات رحيمة تكاد تذوب اللحظة.

هي محاولة لاستعادة زمان بدا اليوم، حلواً ولذيذاً اذا ما قيس بخراب الآن.

طولة الحمير وتنور سليمة وعود بدري الشامي وقدوده الحلبية ومقامات علي ولويزة وحفيظة والأسطة هوبي ومركب الفجل وطقطوقته المضحكة، وقصر شعشوع المفترض، والمربعة والصدرية والعوينة وباب السيف، ودكة مدهشة من صور بغدادية بادت وراحت وذهبت، يكاد مستعيدها يموت من فرط الحنين!!

علي السوداني

فضاءات للنشر والتوزيع

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٤ ٦٥٠٨٨٥
dar_fadaat@yahoo.com

9 789957 300579

SERIOUS® Design